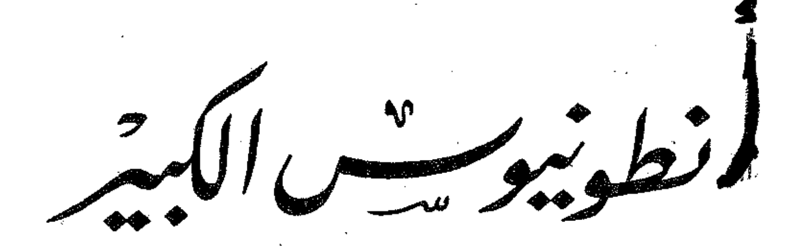


منشورات النور
١٩٨٣

سيرة
أبينا البار أنطونيوس

كتبها أبونا القديس أثناسيوس أسقف
الإسكندرية
أرسلها الى الرهبان الذين في البلاد الاجنبية

نقل هذه السيرة الأب ميشال نجم عن اليونانية القديمة وقد صدرت الطبعة الأولى منها عن منشورات معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي في البلمند، في كتاب «سيرة القديس انطونيوس الكبير». ولقد اعاد الأب نجم النظر في ترجمته الأولى ونقحها من اجل هذه الطبعة الثانية. وصدر عن منشورات النور من اعمال الأب ميشال نجم في الترجمة كتاب « المسيح في الأناجيل » من تأليف ف. كيزيتزش.

تمهيد[1]

انكم شرعتم في منافسة رهبان مصر منافسة شريفة ، لأنكم قررتم أن تماثلوهم أو أن تتفوقوا عليهم في ممارستكم الفضيلة . وها ان لديكم أدياراً وتعيشون حياة الرهبان . والمرء يقدر ان يمدح حقاً هذه الرغبة ، عسى أن يتممها الله بصلواتكم . لكن بما أنكم طلبتم مني أن أكتب لكم عن حياة المغبوط أنطونيوس، و ملؤكم الرغبة في ان تعرفوا كيف بدأ نسكه، ومن كان قبل ذلك، وكيف كانت نهاية حياته، وهل أن كلّ ما يُروى عنه صحيح ، وذلك لكي تقتدوا بغيرته ، قبلت برغبة قوية وصيتكم ، لأنّ ربحي كبير ، حتى عندما أذكر اسمه فقط . أعلم أنكم إذا سمعتم سيرة

---

١ ـ نجد في نص إفاغريوس هذه التحيّة: أثناسيوس الاسقف الى الاخوة في البلاد الاجنبية.

حياته لن تعجبوا بالرجل فحسب ، بل سترغبون في الإقتداء بعزمه ، فحياة أنطونيوس بالنسبة للرهبان نموذج كاف للنسك . ففي الأمور التي سمعتموها ممن أخبركم عنه لا تشكّوا ، بل صدقوا أنكم سمعتم القليل عنه . فأولئك بالجهد أخبروكم هذا المقدار . أمّا أنا فبحثّكم لي ، أرسل لكم كل ما سأدوِّنه في رسالتي ، مورداً القليل عن حياته . لكن لا تتوقفوا عن سؤال المبحرين إلى هناك . فإذا أورد المرء كل ما يعرفه عنه ، يستطيع جاهداً أن يكمل سيرته كما ينبغي . عندما تلقيت رسالتكم ، حرصت على استدعاء بعض الرهبان الذين اعتادوا زيارته بشكل متواتر ، حتى أتعلم منهم أموراً أكثر ، فأرسل لكم معلومات أوفر . لكن بما أن وقت إبحار السفن قد أوشك أن ينتهي ، وحامل الرسالة مسرع في الذهاب ، كتبت إلى ورعكم كل ما أعرفه « لأنني رأيته مراراً » وكل ما استطعت أن أعرفه منه ، لأنني لازمته وقتاً طويلا ، وسكبت في يديه ماء ، كما اعتنيت بأن تكون كل الأمور حقيقية . إذا ما سمع أحدكم شيئاً أكثر فلا يشكّ في الرجل ، أمّا إذا سمع أقل ، فعليه ألاّ يحتقره .

ميلاده ونشأته

١ ـ كان أنطونيوس مصريّ النسب ، وكان أهله من أعيان البلد ، وذوي ممتلكات عديدة. وكانوا مسيحيين فتربّى تربية مسيحية . ونشأ عند والديه دون أن يعرف غيرهما ، ودون أن يعرف ما هو خارج البيت . وعندما شبّ وتقدم في السن رغب عن تحصيل العلم ، لأنه أراد أن يتجنب معاشرة الآخرين . وكان مراده أن يقيم في البيت كإنسان بسيط ، كما كُتب عن يعقوب[1]، غير أنه كان يرافق أهله في ذهابهم إلى الكنيسة . فلم يتهاون وهو صبيّ في الذهاب إلى الكنيسة ، كما أنّه لم يزدر بهذا عند بلوغه ، بل كان مطيعاً لوالديه يصغي إلى كل ما يُقْرأ حافظا في قلبه الفائدة التي تأتيه منه . ورغم الثروة الكافية فإنه لم يزعج أهله بطلب المأكولات الفاخرة والمتعددة ، ولم يكن يسعى إلى اللذات التي تأتي منها ، بل يكتفي بما يجده ولا يطلب المزيد .

٢ ـ بقي أنطونيوس وحيداً مع أخته الصغيرة جداً بعد موت أبويه. وكان عمره آنذاك ثماني عشرة سنة تقريباً أو أنه كان بلغ العشرين. فاهتم بالبيت وبأخته. وما ان مضت ستة أشهر على موت والديه وبينما كان ذاهباً الى الكنيسة

١ ـ «كان يعقوب رجلاً مسالماً» او كاملاً «يلزم الخيام» (تك ٢٥ : ٢٧).

حسب عادته أخذ يفكر كيف ترك الرسل كل شيء وتبعوا المخلص وكيف كان مسيحيو أعمال الرسل يبيعون ممتلكاتهم ويلقون ثمنها عند أقدام الرسل ليوزعوها على الفقراء (أعمال ٤: ٣٥)، و أي رجاء كان ينتظرهم في السماء. ثم دخل الكنيسة وهو يفكر في هذا، وصدف أن قُرىء الإنجيل فسمع السيد يقول للغني: «إن أردت أن تكون كاملا، فاذهب و بع كل ما تملكه و وزّع ثمنه على الفقراء فيكون لك كنز في السماوات، وتعال اتبعني» (متى ١٩: ٢١). وكأن أنطونيوس حصل على نعمة من الله في تذكره القديسين، وكأن المقطع الإنجيلي قرىء له وحده، فللحال خرج من الكنّيسة، و وهب كل الممتلكات التي ورثها عن والديه (وكانت ثلاثمئة فدّان من الأرض الجيدة والكثيرة الخصب) إلى أبناء قريته، كي لا تزعجه وتزعج أخته. ثم باع الممتلكات المنقولة، فجمع من ثمنها مالا كافياً، ووزّعه على الفقراء، محتفظاً بالقليل لأخته.

دعوته الرهبانية وانتصاره على حرب الشيطان

٣ ـ عندما دخل الكنيسة ثانية وسمع في التلاوة الإنجيلية أن الرب يقول « لا يهمكم أمر الغد » (متى ٦ : ٣٤) لم يحتمل البقاء ، فخرج و وزّع الباقي على الفقراء،

ينبغي أن يصلّي في الخفية بلا انقطاع (أنظر متى ٦ : ٦ ، ١ تسا ٥ : ١٧) . وكان يصغي أيضاً إلى تلاوة الكتاب المقدس ، حتى لا يسقط شيء مما يقرأه على الأرض ، فيحفظه ليكون في ذاكرته بدل الكتاب المقدس .

٤ ـ أصبح محبوباً من الجميع ، لأنه روّض نفسه على الفضيلة . كان مخلصاً في طاعة النسّاك العظام الذين كان يزورهم ، وتعلّم ميزات الغيرة والنسك التي كان يتمتع بها كل منهم . فرأى في الواحد الفرح ، وفي الثاني الرغبة في الصلوات الطويلة . وفي هذا عرف التحرر من الغضب ، وفي ذاك الإحسان . وكان يوجّه انتباهه إلى من يسهر وإلى من يحب العلم . كما أعجب بمن يحمل نفسه على كثرة الصبر ، وبمن ينام على الأرض . فكان ينظر بانتباه إلى وداعة هذا ، وإلى طول أناة ذاك . لاحظ كذلك إيمانهم بالمسيح ومحبتهم لبعضهم البعض . فعاد إلى نسكه ممتلئاً ومجاهداً لجمع كل هذه الصفات في نفسه ولإظهارها في ذاته . ولم يحاول أن ينافس الرهبان الذين هم في مثل سنه ، سوى أنه لم يظهر أدنى منهم في اكتساب الفضائل . هو فعل هذا الأمر ، حتى لا يحزن أحداً منهم بل ليفرحوا لجهده هذا . ولمّا رآه أبناء قريته ومحبو الصلاح الذين كانوا يجتمعون به ، عائشاً بهذه الطريقة ، سمّوه حبيب الله . كما أن بعض

كامرأة مقلداً كل التصرفات النسائية، حتى يخدع أنطونيوس، أمّا هو فكان يفكر في المسيح، وفي نبله المسيحي، وفي روحانية النفس، فأخمد جمرة خداع الشيطان. ان العدو أشار إلى حلاوة اللذة، لكنّ ذلك امتلأ غضباً وحزناً وأخذ يفكر في تهديد النار وألم الدود مقاوماً هذه الأمور، وخارجاً منها بدون أذى. هذه كانت من أجل خزي العدو. فمن كان يظن بأنه سيصبح مشابهاً لله (أشعياء ١٤ : ١٤) يسخر منه الآن شاب، ومن افتخر على اللحم والدم يغلبه إنسان يحمل جسداً. فالرب كان يعمل معه، إذ لبس جسداً لأجلنا وأعطانا بجسده النصر على الشيطان، حتى أن كل من جاهد بقوة استطاع ان يقول : «ولا أنا، بل نعمة الله التي هي معي» (١ كور ١٥ : ١٠).

٦ ـ إذن ، عندما عجز التنّين (الشيطان) عن الإنتصار على أنطونيوس بهذه الطريقة ، بل وجد نفسه مطروداً من قلبه ، أخذ يصرّ بأسنانه ، كما كُتب[1]، وكأنه خرج عن طوره . فمثلما يوجد في الذهن ، هكذا ظهر له في الخيال كعبد أسود . ولكونه مخادعاً لم يعد يهجم عن طريق الأفكار الشريرة (لأن الغاش طرد) ، بل عن طريق صوت بشري

١ ـ أنظر ١ بط ٥ : ٨ ومر ٩ : ١٨ . النص هنا يشبه حرفياً مر ٩ : ١٨ إلاّ انه يشبه ١ بط ٥ : ٨ من حيث المعنى.

«حكم على الخطيئة في الجسد، ليتمّ ما تتطلبه منّا أحكام الشريعة، نحن السالكين سبيل الروح لا سبيل الجسد» (رومية ٨ : ٣ - ٤). لكنّ أنطونيوس لم يظهر تكاسلا أو تراخياً، لأنه انتصر على الشيطان، كما أن الأخير لم يتوقف البتة عن نصب الفخاخ ، لكونه قد هُزم ، بل كان يلتفّ حوله كالأسد محاولا أن يجد علّة ضده . لكنّ أنطونيوس الذي تعلّم من الكتاب ان مكائد الشيطان كثيرة كان ينسك نسكاً قاسياً ، لأنه كان يعتقد أن الشيطان إذا لم ينجح حتى الآن في أن يخدع قلبه بلذة جسدية ، فسيحاول بوسائل أخرى أن ينصب له شركاً ، لأن الشيطان صديق الخطيئة . لذلك كان يقسو على جسده ويستعبده أكثر فأكثر ، خوفاً من أن يقع في خطيئة ما بينما انتصر في أخرى .

من هنا أراد أن يتعوّد النسك القاسي . وفي حين أن الكثيرين تعجبوا منه ، فقد تحمّل التعب بسهولة ، لأن نشاط نفسه قوّى في ذاته العادة الحسنة هذه ، حتى انه إذا تلقى توجيهاً صغيراً من الآخرين ، أظهر حماساً كبيراً له . كثيرا ما كان يقضي الليل ساهراً ، ولم يفعل هذا لمرة واحدة ، بل لمرّات عديدة ، حتى أثار الإعجاب ، وكان يأكل مرة واحدة في النهار بعد غروب الشمس ، وتارة مرة كل يومين ، وأحيانا كثيرة مرة كل أربعة أيام . وكان طعامه

خبزاً وملحاً وشرابه الماء وحده . ومن النافلة التكلم على اللحم والخمر ، لأن المرء لا يقدر أن يجدها عند النسّاك الآخرين العظام في تلك المنطقة .

كان يكتفي ببساط للنوم ، وفي أغلب الأحيان كان ينام على الأرض ، كما توقف عن مسح نفسه بالزيت (والمقصود به الصابون) قائلا انه ينبغي على النسّاك الجدد أن يرغبوا في ممارسة التقشف ، غير مستخدمين كل ما يجعل الجسد متكاسلا ، لكي يعتاد القسوة ، لأنه كان يفكر في قول الرسول : « لاني عندما أكون ضعيفاً أكون قوياً » (٢ كور ١٢ : ١٠) . لذلك كان يقول ان عزم النفس يقوى عندما تضعف ملذات الجسد . كان حقاً ذا ذهنية غريبة لأنه لم يكن يقيس تقدمه في الفضيلة ، ولا توحّده من أجل اقتنائها ، بل انه بالغيرة والقصد نسي الماضي وجاهد بقوة من أجل تقدمه الروحي ، حتى أنه كان يبدأ حياته النسكية من جديد كل يوم ، مذكِّراً نفسه بقول الرسول : « أنا أنسى ما ورائي وأجاهد إلى الأمام » (فيليبي ٣ : ١٣) ، ومورداً آية النبي إيليا القائل: « حي هو الرب الذي أنا حاضر أمامه اليوم » (٣ ملوك ١٨ : ١٥) . فلاحظ أن النبي بقوله « اليوم » لم يقس الزمن الماضي ، بل اجتهد ، وكأنه يبدأ كل يوم ، في أن يظهر ، كما ينبغي ، أمام الله طاهر القلب

ومستعداً لإطاعة مشيئته ، وليس لأي شخص آخر . وكان يقول في داخله ان الناسك الذي يستفيد من سيرة إيليا العظيم يجب أن ينظر دائماً إلى حياته كما في مرآة .

٨ ـ وإذ أراد التضييق على نفسه قصد القبور الموجودة بعيداً عن القرية . ولما طلب من أحد معارفه ان يجلب له خبزاً لأيام عديدة دخل أحد القبور ، فأغلق صاحبه الباب دونه وبقي في الداخل وحده . عندها لم يحتمل العدو هذا الشيء ، لأنه خاف من أن يملأ الصحراء شيئاً فشيئاً بنسكه . فدنا منه في إحدى الليالي مع جمهرة من الشياطين ، وجرّحه كثيراً حتى أنه سقط على الأرض لا يقوى على الكلام من شدة العذاب. و أنطونيوس نفسه أكّد أن الآلام كانت شديدة حتى ان ضربات الإنسان ، كما يقول ، لا تسبب ألماً لا يُحتمل كهذا . لكن بعناية إلهية ـ لأن الرب لا يتغاضى عن الذين يضعون رجاءهم عليه ـ أتى صاحبه في اليوم التالي جالباً له الخبز . وعندما فتح الباب رآه ملقى على الأرض كالميت ، فأخذه بيديه وحمله الى الكنيسة التي في القرية ، ووضعه على الأرض . فأتى كثير من أقاربه ومن أهل القرية فجلسوا بجواره ، وكأنهم بجوار ميت . لكنّ أنطونيوس عاد إلى وعيه في نصف الليل ، فرأى الجميع نياماً ، ما عدا صاحبه ، فأومأ إليه برأسه ليقترب منه ورجا منه أن يحمله على

يديه ويعيده إلى القبور دون أن يوقظ أحداً .

٩ ـ فحمله الرجل وأغلق الباب كالغادة ، ليبقى وحيداً في الداخل . لكنه لم يقو على الوقوف بسبب جراحاته ، فاستلقى على الأرض وأخذ يصلّي . ولما أنهى صلاته صرخ بقوة : أنا هو أنطونيوس أنا هنا . انني لن أهرب من جراحاتكم ، حتى لو أصبتموني أكثر « فلا شيء يفصلني عن محبة المسيح » (رومية ٨ : ٣٥) . ثم أخذ يرتل قائلا « ان اصطفّ عليّ عسكر ، فلن يخاف قلبي » (مزمور ٢٦ : ٣) . هذه هي الأمور التي قالها الناسك وآمن بها ، لكنّ كاره الصلاح اندهش من تجاسره على العودة إلى القبور بعد كل هذه الجراحات ، فجمع كلابه ـ الشياطين ـ وقال لهم بعد ان تمزق غضباً : انظروا اننا ما استطعنا ان نوقفه بروح الزنى أو بالضربات ، بل انه يتواقح علينا جداً ، فلنهجمنّ عليه بطريقة أخرى . وبما أنه يسهل على إبليس اتخاذ أشكال شريرة ، فقد أخذ يُحدث في الليل ضربات قوية ، إلى درجة تجعل الإنسان يظن أن المكان يتزلزل ، وبأنه ثقب حوائط البييت[1] الأربعة، فبدت وكأنها تدخل منها ، آخذة شكل الحيوانات المتوحشة والزحافات . فامتلأ

---

١ ـ بُيَيْت تصغير بيت.

البيت للحين بأشكال الأسود والدببة والنمور والثيران والأفاعي والأصلال والعقارب والذئاب ، وأخذ كل حيوان يتحرك وفق طبيعته . فالأسد بدأ بالزئير عليه مريداً الإنقضاض ، والثور بدا وكأنه يضربه بقرنه ، والأفعى بدأت زحفها ، لكنها لم تقترب منه ، والذئب حاول الهجوم عليه لكنه لم يفعل . فكان ضجيج الأشباح مخيفاً وغضبهم عنيفاً . لكن في الوقت الذي كان يُجْلَد فيه أنطونيوس ويُنْخَس، شعر بألم جسدي أشد . إنه كان يضطجع بنفس ساهرة وغير مضطربة ، ويئن من الألم الجسدي ، لكنّ عقله كان صاحياً . قال وهو يهزأ بالشياطين : لو كنتم تملكون أية قوة يكفي أن يأتي حيوان واحد منكم ، لأن الربّ جعلكم عديمي القوة . لذلك حاولتم ان تخيفوني بجمهرتكم ، لكنّ علامة ضعفكم هي تقليد لأشكال الحيوانات غير الناطقة .

هنا تشجع أنطونيوس أكثر وقال : ان كنتم ذوي قدرة أو إن حصلتم على قوة ضدي ، فلا تتأخروا في الهجوم عليّ ، وإن كنتم لا تقدرون عليّ فلماذا تهتاجون عبثاً. فإن سوري وحصني بالسلامة هو إيماننا بالرب. وهكذا قامت الشياطين بمحاولات عديدة ضده صارفة بأسنانها ، لكنها كانت تضحك على نفسها وليس عليه .

١٠ ـ إلاّ أن الرب لمّ ينس صراع أنطونيوس ، فسارع إلى نجدته . ورفع أنطونيوس ناظريه إلى فوق فرأى السقف وكأنه ينفتح شيئاً فشيئاً ، ورأى شعاعاً من النور ينزل عليه . فجأة اختفت الشياطين وتوقف للحين ألم جسده وعاد البناء كاملا . وحينما أحسّ بالمساعدة تنفس الصعداء وتوجّه إلى المشاهدة الإلهية ، بعدما ارتاح من الآلام ، قائلا : أين كنت ؟ لماذا لم تظهر في البدء ، كيما تريحني من العذاب ؟ فأتاه صوت يقول له : كنت هنا يا أنطونيوس ، لكني كنت أنتظر جهادك . ولكن بما أنك صبرت على العذاب ولم تُهْزم ، فسأكون لك عوناً على الدوام ، وسأعمل كيما يكون اسمك معروفاً في كل مكان . ولما سمع هذا نال قوة حتى انه نهض وصلّى ، وأحسّ بأن جسده صار أشد قوة من ذي قبل . حدث هذا عندما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره .

١١ ـ في اليوم التالي خرج بزخم أقوى في اتقائه للّه . وانطلق الى الشيخ القديم راجياً إياه ان يسكن معه في الصحراء . لكنّ الشيخ رفض بسبب سنه ، ولأن هذا كان غير مألوف في تلك الآونة . فانطلق في الحال الى الجبل . أما العدو فكان ينظر إلى غيرته وهو يحاول أن يقاومها ، فألقى في الطريق قرصاً فضياً كبيراً . لكنه أدرك حيلة كاره الخير ،

فنظر إلى القرص ووبّخ الشيطان الذي فيه وقال : كيف وُجد هذا القرص في الصحراء ؟ ان الطريق ليس مألوفاً ، ولا أثر فيه يشير إلى مرور أناس من هنا . كما أنه لو سقط لآثار الإنتباه ، لأنه كبير الحجم ، ولو رجع الذي أضاعه ليفتش عنه ، أما وجده ، لأن المكان مقفر. إذن إنه من حيل الشيطان. فلن تعيقني عن هذا الحماس أيها الشيطان ، «إلى الهلاك انت وما لك» (أعمال ٨ : ٢٠). وفيما يقول هذا اختفى القرص «كالدخان أمام النار» (مزمور ٦٧ : ٢).

١٢ - وعندما تقدم في الطريق رأى ذهباً حقيقياً ملقى على الطريق . لكنّ أنطونيوس لم يخبرنا ، ونحن لم نعلم ، إن كان العدو هو الذي أراه إياه أو انّ قوة أعظم أرادت ان تمتحن المجاهد ، وأن تظهر للشيطان انه لا يهتم بالمال ، إنما نعرف ان ما ظهر كان ذهباً . تعجب أنطونيوس من كمية الذهب ، لكنه عبر فوقها ، وكأنه يعبر فوق النار ، فلم يرجع رأسه إلى الخلف . بل أخذ بالركض بسرعة ، حتى يختفي المكان فينساه . ومن ثم وجد عبر النهر حصناً مهجوراً منذ زمن مليئاً بالزحافات . فعبر إليه وسكن فيه . وللحين هربت الزحافات ، بل قل أن أحداً طردها . فأقام حاجزاً على مدخله ، واختزن خبزاً لمدة ستة أشهر (كما كانت عادة

الطيبيين ، الذين كثيراً ما حفظوا الخبز سليماً لمدة سنة كاملة) .
وبما ان الماء كان متوفراً داخله ، لزمه متوغلا فيه ، فمكث فيه دون أن يخرج لزيارة أحد و دون أن يرى أحداً من الـذين كانوا يزورونه . وهكذا أمضى وقتاً طويلا ، في نسكه ، لكنه كان يقبل الخبز مرتين في السنة من السقف .

١٣ - لم يكن يسمح لمعارفه الذين كانوا يأتون لزيارتـه بالدخول ، وفي كثير من الأحيان كانوا أثنـاء انتظارهـم في الخارج ليل نهار يسمعون ضجيج جمهرة من الناس وكأنهـا تتضارب وتتصارخ يائسة وهي تقول : ابتعد عن أماكننا ، ما علاقتك بالصحراء ! فلن تستطيع احتمال مكيدتنا . وكان الذين في الخارج يظنون في البدء أن جماعة من الناس دخلت بواسطة السلالم ، وأخذت في العراك معه . لكن عندما كانوا ينحنون وينظرون من ثقب البـاب ، كانـوا لا يرون احداً ويدركون أنها الشياطين ، فيخافون ويطلبون مساعدة أنطـونيوس . بيد أن أنطـونيوس كان يصغـي إلى أصـوات الزائرين ، غير مكترث بالشياطين . بل كان يدنو من الباب ويرجوهم أن يرحلوا ، حتى لا يخافوا وكان يقـول لهـم إن الشياطين تخلـق رؤى للجبنـاء . لذلك ارسمـوا إشـارة الصليب و اذهبوا بشجاعة و اتركوا هؤلاء يضحـكون على أنفسهم . فكانوا يتحصّنـون بإشـارة الصـليب ويرحلون .

أما هو فلم يمسه أذى ولـم يتـراخ في جهـاده ، إذ أن قوى الرؤى الإلهية وضعف الأعداء أراحـاه من الآلام وأعـطياه حماساً أشد . واعتاد معارفه أن يأتوا إليه وهم يظنون أنهـم سيجدونه ميتاً ، لكنهم كانوا يسمعونه وهو يرتل «ليقم الله ولتَتبدد أعداؤه . وليهرب مبغضوه من أمام وجهه . كما يتبدد الدخان يتبددون ، وكما يذوب الشمع أمام النـار ، يذوب الخطأة أمام وجه الله » (مزمور ٦٧ : ١ ـ ٢) . « أحدقت بي جميع الأمـم ، و باسـم الـرب قهرتهـا » (مزمـور ١١٨ : ١٠).

زيارة النسّاك الجدد له وتوحّدهم

١٤ ـ انقضت عشرون سنة دون أن يخرج أو أن يراه أحد باستمرار وهو ينسـك بمفـرده على هذا النحـو . بعـد هذه السنين ، لمّا رغب و أراد كثير من الناس أن يقلّدوا نسكه ، أتى معارفه وفتحوا الباب عنوة . فخرج أنطـونيوس وكأنـه يخرج من الهيكل وهو يحمل الله ويتلقن سرّه ،فكانـت المرة الأولى التي يظهر فيها خارج الحصن . فتعجبوا منه ، لأنهم رأوا جسده في حالته المعتادة ، أي أنه لم يترهل كشخص لم يمارس رياضة بدنية ، ولم يضعف بسبـب كثرة الأصـوام وصراعه مع الشيطان . انه هو نفسه كما عرفوه قبل اعتزاله

الطويل . فسجية نفسه كانت طاهرة . والأسى لم يتحكم به . عقله لم يتشتت قط من جراء أية لذة . ولم يكن عابساً ولا ضاحكاً . وحينما رأى الجمع لم يضطرب ، كما لم يفرح بمعانقة الكثيرين له . فكان عقله راجحاً وحالته طبيعية . كان هو نفسه دائماً . والرب شفى بواسطته أمراض عدد كبير من الحاضرين ، وطهّر آخرين من الشياطين . الرب أعطاه نعمة كبيرة في الكلام ، فعزّى كثيرين من الحزانى وصالح المتخاصمين . وفي نهاية حديثه قال لهم إنه ينبغي ألا نضع في العالم شيئاً أرفع من محبة المسيح . وكان يحدثهم حاثّاً إياهم على تذكر الخيرات الآتية ، والمحبة التي أظهرها الله للإنسان «الذي لم يبخل بابنه بل أسلمه إلى الموت من أجلنا جميعاً ، كيف لا يهبنا معه كل شيء» (رومية ٨ : ٣٢) . فأقنع الكثيرين باختيار حياة التوحد . وهكذا قامت الأديار على الجبال ، وتحوّلت الصحراء الى مدينة يقطنها الرهبان الذين خرجوا من تلقاء أنفسهم وكتبوا أسماءهم في الموطن السماوي .

١٥ - احتاج مرة إلى عبور قناة أرسينويتيس[١] (لأن زيارة الإخوة كانت ضرورية) وكانت مليئة بالتماسيح . فاكتفى

١ - تقع في منطقة الفيّوم اليوم.

بالصلاة ثم دخل المياه مع الذين كانوا معه عابـرين القنـاة بدون ضرر . وعندما رجع الى الدير أكمل الجهاد الشريف والقوي . وفي حديثـه مع الرهبـان الجـدد ملأهـم حماسـاً وحثّهم على عشق النسك . وبجاذبية أقواله تأسست بسرعة أديار متعددة ، فكان هو يرشدهم كأب .

عرض خبرته للنسّاك

١٦ ـ خرج مرةً إلى الخارج فاقترب منه جميع الرهبان وطلبوا ان يسمعوا منه كلمـة فقـال لهـم باللغـة المصرية : الكتاب المقدس كاف للتعليم ، لكن من الحسن أن يشدّد الواحـد الآخـر في الإيمـان ، و أن نطيّب النفس بالـكلام الروحي . فيا أولادي احملوا الى أبيكم كل ما تعرفونه ، وأنا سأنقل لكم ما أعرفه من خبرتي ، لأنني أكبر منكم سناً . لتكن هذه الغيرة مشتركة عند الجميع ، ولا نفكرنّ في الرجوع إلى الحياة الدنيوية بعد أن بدأنا ، ولا نخضعنّ عقلنا للشر ، ولا نقل إننا عتقنا في الحياة النسكية ، بل ليزد حماسنا أكثر فأكثر ، وكأننا نبدأ كل يوم . حياة الإنسان قصيرة جداً إذا ما قيست بدهور الحياة الآتية ، بل إن كل حياتنـا الأرضية لا تساوي شيئاً أمـام تلك . كل ما في العالـم نقايضـه بشيء يساويه ، أما وعد الحياة الأبدية فيشترى بسعر قليل جداً .

لقد كُتب « أيام حياتنا سبعون سنة و إن كانت مع القوة فثمانون ، ومعظمها كدّ وعناء » (مزمور ٨٩ : ١٠) ، أي إذا ثبتنا في النسك لمدة ثمانين أو مئة سنة ، فلن نتملّك (نصبح ملوكاً) لمئة سنة فقط ، بل إلى دهر الداهرين . وفي حين اننا نجاهد على الأرض ، فلن نرث ما عليها ، لأننا سنحصل على الوعود في السماوات . وفي حين أننا نترك على الأرض جسداً ميتاً ، فسنحصل في السموات على جسد غير فاسد .

١٧ - يا أولادي ، يجب علينا ألا نفقد حماسنا ظانين اننا عتقنا في النسك ، أو أننا حققنا شيئاً عظيماً . « إن آلامنا في هذه الحياة لا توازي المجد الذي سيظهر فينا » (رومية ٨ : ١٨) . ويجب أيضاً ألا ننظر الى العالم وكأننا تركنا أموراً عظيمة . ان هذه الأرض صغيرة جداً إذا قيست بالسماء كلها . فلو اتفق ان كنّا أسياد الأرض ، ورفضنا كل شيء فيها ، فهذا لا يستحق مقارنته بأي شيء في ملكوت السماوات . هذا النكران هو كمن يزدري درهماً نحاسياً ، حتى يربح مئة درهم ذهبي . فإذا كانت الأرض كلها لا تساوي شيئاً بالنسبة إلى السماء ، فمن ترك بعض الحقول يكون كمن لم يترك شيئاً . إذا ما تركتم بيتاً أو ذهباً كثيراً فلا

تفتخروا ولا تكتئبوا ، لأنه ينبغي أن ندرك انه إذا لم ننكر كل شيء من أجل الفضيلة ، فإننا سنتركها حتماً عند الموت وفي الأغلب لأناس لا نريدهم ، كما يذكر كاتب سفر الجامعة (أنظر الجامعة ٤ : ٨) . إذن ، لماذا لا ننكر كل هذه الأمور من أجل ان نرث الملكوت ؟ لا نظهرنّ رغبة في الحصول على النعم المادية ، إذ ما فائدة الحصول على أمور لن نستطيع أن نأخذها معنا ؟ فلماذا لا نقتني الأمور التي نستطيع أن نأخذها معنا وهي التعقل والبر والفطنة والرجولة والحصافة والمحبة والرحمة والإيمان بالمسيح واللاغضب ومحبة الغرباء ؟ ان اقتنيناها نجدها قبلنا هناك ، حيث ستهيء لنا ترحيباً في أرض الودعاء .

١٨ ـ على الواحد منّا أن يقنع نفسه بهذه الأفكار غير متراخ فيها ، وعلى الأخص إذا فكّر في انه عبد الرب وأن من واجبه خدمة السيد . فكما لا يجرؤ العبد على القول : إنني اشتغلت في الأمس فلن أشتغل اليوم ، بل انه لا يتوقف عن العمل ، إذ لا يحسب الأيام التي أشتغل فيها ، بل يظهر النشاط عينه (كما كتب في لوقا ١٧ : ٧ ـ ١٠) كي يعجب سيده ، وكي لا يعرّض حياته للخطر ، هكذا فلنثبت في نسكنا كل يوم عالمين بأننا إذا تهاونا يوماً واحداً ، فلن يسامحنا

الله من أجل ماضينا الحسن ، بل سيغضب علينا لتهاوننا . هذا ما سمعناه من النبي حزقيال (في الفصل ١٨) بأن يهوذا خسر في ليلة واحدة تعب الماضي .

١٩ - لننصرف إلى حياة النسك من دون تهامل ، لأن الرب يتداءب معنا ، كما كُتب : «ان كل الأشياء تعمل معاً لخير الذين يحبون الله » (رومية ٨ : ٢٨) . ولكي لا نقع في التهامل يحسن ان نعتبر بقول الرسول :« إنني أموت كل يوم » . إذا ما عشنا وكأننا نموت كل يوم فلن نخطأ . ومعنى هذا هو أننا عند نهوضنا من النوم في كل يوم فلنفكر في أننا لن نعيش حتى المساء ، وعند انطلاقنا الى النوم فلنفكر في أننا لن ننهض ، لأن حياتنا مجهولة بطبيعتها . فالعناية الإلهية هي التي توزّعها علينا . إذا سيطرت هذه المشاعر علينا وعشنا على هذا المنوال لن نخطأ ولن تعترينا رغبة شريرة ، ولن نغضب على أحد ، ولن نكنز كنوزاً على الأرض . فلنكن عادمي القنية ولنسامح الجميع بكل ما أساؤوا إلينا ، وكأننا نموت كل يوم . لا نُبقينّ في داخلنا شهوة امرأة أو أية لذة شريرة ، ولنبتعد عنها ، لأنها عابرة ولنجاهد ناظرين دائماً إلى يوم الدينونة ، لأن الخوف العظيم والصراع ضد التجارب يدمّران سهولة اللذة ، وينهضان النفس الساقطة .

٢٠ ـ بما أننا ابتدأنا بالسير ووطئنا الآن طريق الفضيلة ، فلنجاهد أكثر لنتقدم الى الأمام ، فلا يُرجع أحد منّا رأسه إلى الخلف كإمرأة لوط ، إذ أن الرب قال : « ما من أحد يضع يده على المحراث ويلتفت إلى الوراء ، يصلح لملكوت الله » (لوقا ٩ : ٦٢) . فإن إرجاع الرأس الى الخلف ما هو إلا تغيير في الرأي وتفكير دنيوي . لا تخافوا عندما تسمعون عن الفضيلة ، ولا يدهشكم اسمها ، لأنها ليست بعيدة منّا وليست خارج أنفسنا بل فينا . انها أمر سهل يكفي أن نريده . ان الهلينيين يسافرون ويعبرون البحر لتحصيل العلم ، لكننا نحن لا نحتاج الى السفر من أجل ملكوت السماوات ، ولا إلى عبور البحر من أجل الفضيلة ، لأن الرب سبق فقال : « ان ملكوت السماوات هو فيكم » (لوقا ١٧ : ٢١) .

إذن ، ان الفضيلة تحتاج إلى إرادتنا فقط ، لأنها فينا ولأنها تثبت من خلالنا . وهي تُكْتَسب عندما يتوق الجزء الروحي من النفس بالطبيعة إليها . هذا التوق يتم عندما تبقى النفس كما خلقت جميلة ومستقيمة . لذلك قال يشوع بن نون الى الشعب في وصيته إليهم : «اجعلوا قلوبكم مستقيمة في طريق الرب إله اسرائيل » (يشوع ٢٤ : ٢٣) . ويوحنا قال : « اجعلوا سبله مستقيمة » (متى ٣ : ٣) . ان روحانية

النفس هي من طبيعتهـا ، أي أن تكون مستقيمـة كما خُلقت ، أمـا انحرافهـا فيعـود إلى الفسـاد الحاصـل في طبيعتها ، وهذا ما يسمّى بشرّ النفس . ليس الأمر عسيراً ، لأننا إذا بقينا كما خلقنا الرب فسنكون في الفضيلة ، أما إذا فكرنا في الشر ، فسنـدان كأشرار . ان اكتسـاب الفضيلـة سيكون صعباً عندما نُضطر للبحث عنها خارج أنفسنا . أما إذا كأنت فينا فلنحفظ أنفسنا من الأفكار الدنسة ، ولنضعها عند الرب وكأننا تسلمناها وديعة منه ، حتى يعرف هو خلقه وحتى تكون كما خلقها .

٢١ ـ فلنجاهد كي لا يطغى علينا الغضب ولا تتسلـط علينا الشهوة ،لأنه كُتب: « ان غضب الإنسان لا يصنع بر الله » (يعقوب ١ : ٢٠) . « الشهـوة إذا حبلـت ولـدت الخطيئة ، والخطيئة إذا نضجت ولـدت الموت » (يعقـوب ١ : ١٥) . فلنكن صاحين في سيرتنا ، حتى نحفظ أنفسنا بكل حرص (أنظر أمثال ٤ : ٢٣) ، لأن أعداءنا مرعبون وخدّاعون ، انهم الشياطين الأشرار ، وصراعنا هو ضدهم كما قال الرسول: «فنحن لا نحارب أعداء من لحم ودم، بل أصحاب الرئاسة والسلطان والسيادة على هذا العالم ، عالم الظلام : نحن نحارب الأرواح الشريرة في الجو» (أفسس

٦ : ١٢) . جمهرتهم كثيرة في الجو الذي يحيط بنا ، وهي ليست بعيدة عنا ، وأنواعهم متعددة أيضاً . فالكلام كثير على طبيعتهم وأنواعهم ، لكنه عمل من هم أرفع منّا ، أمّا الشيء الضروري والملحٌّ تعلمه فهو ان خداعهم موجّه ضدنا .

٢٢ ـ ينبغي أن نعرف أولا أن الشياطين لم يُخلقوا شياطين ، لأنهم يحملون هذا الإسم ، فالله لم يخلق أيّ شر . خلقهم الله صالحين ، لكنهم سقطوا وابتعدوا عن الحكمة الإلهية ، فأخذوا يدبّون على الأرض . ثم خدعوا الهلينيين بالخيالات ، والآن هم يحاولون خداعنا ، إذ يحسدون المسيحيين . انهم يريدون أن يعيقونا عن الإرتفاع الى السماوات ، لكي لا نرتفع إلى المكان الذي سقطوا منه . وهكذا نحتاج إلى الصلاة الكثيرة والنسك ، لكي نحصل من الروح القدس على موهبة تمييز الأرواح ، وعلى معرفة خصائصها : أي روح أقل شراً وأي روح أكثر شراً ؟ ما هو سعي كل واحد منها ؟ وكيف يُطْرد ويهْزم ؟ فحبائلهم ووسائل هجومهم متعددة . ان الرسول المطوَّب وتلاميذه عرفوا حبائل الشيطان : «نحن لا نجهل أفكاره » (٢ كور ٢ : ١١) . يجب على كل واحد منّا أن يصلح الآخر وفقاً

لخبرته مع الشياطين . وأنا بما أنني أملك بعض الخبرة معهم فسأحدثكم عنهـا يا أولادي .

٢٣ ـ إذا ما رأى الشيطان ان المسيحيين عامة والرهبـان خاصة يتقدمون روحياً ويحبون الجهاد يسعـى إلى تجربتهـم ناصباً لهم عثاراً في الطريق ، أي أفكاراً شريرة . فلا تخافوا من هجماتهم ، لأنهم يهزمـون حالا بالصلـوات والأصـوام والايمـان بالـرب . لكنهـم لا يتوقفـون عن الهجـوم ، بل يقتربون بغش وخبث . فعندما لا يستطيعون خداع القلب بشهوة دنسة وظاهرة ينقضّـون بطريقـة أخـرى ، فيثـيرون التخيلات لإخافته ، آخـذين شكل النســاء والوحــوش والزحافـات والأجسـاد الضخمـة والجيوش الكثـيرة . لا نرتعـب من هذه التخيلات ، لأنهـا ليسـت بشيء وتختفـي بسرعة ، عندما يحمي المرء نفسه بالإيمان وبإشارة الصليب . انهم وقحون جداً و ذوو صفاقة ، لأنهم يهجمون بأسلوب آخر إذا هزموا ، فيدّعون أنهم يتنبأون عما سيحـدث بعـد أيام ، مظهرين أنفسهم مديدي القامـة أي حتـى السـقف وذوي ضخامة في العرض لكي يخدعـوا بالتخيلات أولئـك الذين لـم ينخدعوا بالأفكـار . أما إذا وجدوا النفس مشددة بالإيمان وبرجاء الفكر ، فإنهم يطلبون مساعدة رئيسهم .

٢٤ ـ ثم قال أنطونيوس : إن الشياطين تظهر غالباً على هذا النحو ، كما كشف الرب لأيوب بقوله : « عيناه كهدب الصباح ، من فمه تخرج مصابيح مشتعلة . وشرار نار يتطاير منه . من منخريه يخرج دخاناً من قدر منفوخ أو من مرجل . نَفَسُه يشعل الجمر ، واللهيب يخرج من فمه » (أيوب ٤ : ١٨ ـ ٢١) . هكذا يظهر رئيس الشياطين ، كما قلت سابقاً ، مرعباً ومتكلماً بفخر واعتزاز ، كما أدانه الرب حين قال لأيوب « يحسب الحديد كالتبن ، والنحاس كالعود النخر » (أيوب ٤١ : ٢٧) . « يحسب البحر كأنه حمام ماء ، وقعر الهاوية كأنه أسير له ، واللجة كأنها ممر له » (أيوب ٤١ : ٢٤ ـ ٢٥) . قال على لسان النبي: « قال العدو : أتبعهم فألحقهم » (خروج ١٥ : ٩) وقال على لسان نبي آخر: « سأقبض بيدي على المسكونة كلها ، مثلما أقبض على العش ، وسأرفعها كما يرفع المرء البيض المهجور » (أشعياء ١٠ : ١٤) . هذه الأمور يحاولون أن يفخروا بها ، ويعدون بها الذين يتّقون الله ليخدعوهم . لذلك يجب علينا نحن المؤمنين ألاّ نخاف من ظهوراته ، وألاّ نأبه لكلماته ، لأنه كاذب ولا يتكلم بالصدق أبداً . إذ على الرغم من كثرة هذا الإفتخار في الكلام والوقاحة ، فإن المخلص قبض عليه بصنارة كتنّين كبير ، وكدابة وضع

الرسن في فكيها ، وكهارب أوثق منخره بخطام وثقب شفتيه ببُرّة ، فأوثقه الرب كعصفور حتى نسخر منه . ومعه الحيات والعقارب (أنظر لوقا ١٠ : ١٩) كي ندوسها نحن ، والبرهان على هذا هو أننا نعيش ضده . فالذي يزعم انه سيجفّف البحر وسيصبح سيد المسكونة لا يستطيع أن يعيق نسكنا ولا يستطيع أن يعيقني أنا الذي أتكلم ضده الآن . فلنعرض عن أقواله ، لأنه يكذب ، ولنتشجع أمام تخيلاته ، لأنها تكذب أيضاً . وما الضوء الذي يظهر عن طريق التخيلات حقيقياً ، بل هو مقدمة وصورة عن نار جهنم المعدّ له ، أي أنهم يخيفون الناس بما سيعذبون به . ان أشباحه وتخيلاته تظهر وتختفي سريعاً دون أن تسبب أذى لأي مؤمن ، فهي تعطي صورة عن النار التي ستنالها . فلا تخافوا من فنونها ، لأنها تصبح عدماً بنعمة المسيح .

٢٥ ـ الشياطين مخادعة وقادرة على أن تأخذ الشكل الذي تريده . فكثيراً ما تتظاهر وهي مختفية بأنها ترتل ، وبأنها تذكر كلمات من الكتاب المقدس . وأحياناً تردد ما نقرأه وكأنها صدى . وتارة تنهضنا للصلاة ، كي لا ننام ، بل إنها تفعل هذا باستمرار بحيث لا تسمح لنا بالنوم . وطوراً تتخذ شكل الرهبان متظاهرة انها تتكلم بتقوى لكي تخدعنا بهذا الشكل ، فتجرّ الذين خدعتهم الى حيث تريد . لذلك

يجب ألاّ نصغي إليها حينما تنهضنا للصلاة وحينما تنصحنا ألاّ نأكل أبداً وحينما تتظاهر بأنها تتهمنا وتوبخنا في أمور وافقتنا فيها سابقاً . فهي لا تفعل هذا عن تقوى أو عن حقّ ، بل لتقود المستقيمين إلى اليأس ، ولتظهر لهم أن الحياة النسكية غير مفيدة ، فتثير فيهم الإشمئزاز وتجعلهم يظنون بأن الحياة الرهبانية حمل ثقيل ، وبهذا تعيق الذين يعيشونها رغماً عنهم .

٢٦ ـ ان النبي الذي أرسله الله ينظر الى تعسهم قائلا : « ويل لمن يسقي قريبه بغية خداعه بعد أن يسكر » (حبقوق ٢ : ١٥) . هذه الحبائل والأفكار الشريرة تبعد الناس عن طريق الفضيلة . مع أن الشياطين قالت الحقيقة للرب ـ « انك أنت هو ابن الله » (لوقا ٤ : ٤١) ـ فهو أغلق أفواهها وأعاقها عن الكلام خوفاً من أن تزرع الشر مع الحق ، ومن أن نألفها ونصغي إليها ، حتى لو نطقت بالحق . فمن غير اللائق ان نتعلم من الشيطان الذي لم يحافظ على مركزه ، والذي اعتقد بأمور بدل أمور أخرى ونحن نملك الكتاب المقدس والحرية التي تنبع من المخلص . وحتى عندما يستخدم كلمات الكتاب يمنعه الرب : « قال الله للخاطىء : لماذا تتحدث عن حقي ويتلفظ لسانك بعهدي ؟ » (مزمور ٤٩ : ١٦) . ان الشياطين

تستخدم كل الوسائل لخداعنا ، فتتكلم وتثير ضجيجاً وتتنكر وتضطرب لخداع المستقيمين وتخلق ضربات وتضحك بجنون وتصفّر ، وإذا لم يصغ المرء إليها فإنها تبكي وتنوح كمهزومة .

٢٧ ـ ان الرب كإله أكمّ أفواه الشياطين . وبما أننا تلقّنا درساً من القديسين فيجب ان نقتدي بشجاعتهم ، لأنهم عندما رأوا هذه الأمور قالوا : « حينما وقف الخاطىء قبالتي أغلقت أذني ، أذللت نفسي ، ولزمت الصمت عن الخير » (مزمور ٣٨ : ٢ ـ ٣) . وكذلك « كنت كأصم لا يسمع وكأخرس لا يفتح فمه وصرت كإنسان لا سمع له » (مزمور ٣٧ : ١٤ ـ ١٥) . لذلك يجب ألاّ نصغي إليها لأنها غريبة عنّا ، وألاّ نطيعها حتى عندما توقظنا للصلاة أو تتكلم على الصوم . ولننتبه الى الغيرة النسكية دون أن ننخدع بما تفعله بغش ، حتى لو ظهرت أنها تنقضّ علينا أو تهددنا بالموت . فهي ضعيفة ولا تقوى على شيء سوى التهديد .

٢٨ ـ كلّمتكم حتى الآن على الشيطان بإيجاز ، ولا أجد صعوبة في أن أتكلم عليه الآن بتوسّع ، لأن تكرار الكلام هو من أجل امانكم الروحي . بسكنى الرب بيننا سقط العدو وضعفت شياطينه، وأصبح عاجزاً عن تحقيق أي

شيء . لكن بما أنه طاغية وساقط فهو لا يهدأ ، بل يهدد حتى لو كان تهديده بالأقوال فقط . فليصغ كل منّا هذه الأمور في فكره ، فإنه يقوى على احتقار الشياطين . لو كانوا ذوي أجساد مثلنا ، لكانوا قادرين على الزعم بأننا لا نجد الناس عندما يختبئون ، لكن عندما نجدهم نؤذيهم . ونحن أيضاً ننجو منهم عندما نختبىء ، كما أننا نستطيع ان نغلق الباب دونهم . وإذا لم يكونوا كذلك فإنهم يستطيعون أن يدخلوا والأبواب مغلقة ، وان يكونوا حاضرين في الفضاء كله ، وعلى رأسهم إبليس . الشياطين تبتغي الشرّ وتستعد دائماً لإيذاء الناس ، كما قال الرب أن الشيطان أب الشر وقتّال الناس . وطالما اننا نحيا ، وبالأولى اننا نحيا ضدها ، يتضح أنها لا تقوى على شيء ، إذ أن الأمكنة لا تعرقل مؤامراتها . هي لا تنظر إلينا كأصدقاء ، فتشفق علينا ، ولا تحب الخير كي نفعله ، بل هي شريرة وتسعى إلى إيذاء الذين يحبون الفضيلة ويتقون الله . وبما أنها لا تقدر على شيء تلجأ إلى التهديد ، إذ لو كانت ذات قوة لما ترددت في ارتكاب الشر حالا . فهذه هي رغبتها وعلى الأخص ضدنا . نحن الآن اجتمعنا في هذا المكان لنتكلم ضدها ، وهي على يقين بأننا بالقدر الذي نتقدم فيه روحياً تضعف هي . فلو كانت تملك القوة لما تركت مسيحياً واحداً منّا على

قيد الحياة . « ان اتقاء الله مقت للخاطىء » (حكمة سيراخ ١ : ٢٥) . انها تلجأ إلى تجريح نفسها ، لأنها لا تحقق شيئاً من الأمور التي تهدد بها . ولذلك يجب ان نتذكر عدم مخافتها . فلو كانت تملك قوة لما أتت بجمهرة ولما خلقت تخيّلات ولما غيّرت أشكالها ، ولما استخدمت الخيالات . إذ يكفي ان يأتي واحد منها ويفعل ما يريده . بل إن كل ذي سلطان لا يلجأ إلى القتل بالخيال ولا يثير الرعب بالضجيج ، بل يستخدم قوته بسرعة كما يشاء . لكن بما أن الشياطين لا قدرة لها ، فهي تمثل على المسرح مغيّرة شكلها ومرعبة الأطفال بأشباحها وأشكالها ، فيكون ضعفها سبباً لاحتقارها . ان الملاك الحقيقي الذي أرسله الرب ضد الأشوريين لم يكن بحاجة إلى الجماهير ولا إلى ضجيج ولا إلى خيالات كاذبة ولا إلى ضربات ، بل استخدم سلطانه بهدوء وبدون خوف وقتل دفعة واحدة مئة ألف وخمسمئة وثمانين ألف رجل . أما الشياطين التي لا قوة لها فترعب الناس لو بالخيالات .

٢٩ ـ إذا فكر الإنسان في آلام أيوب وتساءل : لماذا حرّك الشيطان كل الأمور وجرّده من ممتلكاته وقتل أولاده وضربه بقرح رديء (أيوب ١ : ١٥ ـ ٢٢ ، ٢ : ١ ـ ٧) ؟

فليعـــرف بأن الشيطـــان ما كان يملك أية قوة لفعـــل هذه الأمور ، لو لم يسمح له الله من أجل امتحانه . وحيث أنه لا يقدر على أي شيء ، طلب السماح من اللـه ، وعندمـا حصل على ذلك فعل ما شاء . من هنا كان العدو مستوجباً الدينونة ، لأنه لا يستطيع أن ينزل الشر بإنسان صدّيق حتى لو أراد ذلك . فلو كان قادراً لما طلب من الله . وبما أنه لم يطلب مرة واحدة بل مرتين ظهر انه ضعيف وغير قادر على شيء . وما فشله ضد أيوب غريباً ، لأنه لو لم يسمح له الله لما استطاع القضاء حتى على حيوانـات أيوب . إذ لم يقـو حتى على الخنازير ، كما كُتب في الإنجيل حينما قال للرب: « فأذن لنا ان نذهب الى قطيع الخنازير » (متى ٨ : ٣١) . إذا كان الشيطـان لا يملك السلطـة على الخنـازير ، فكم بالحري على الذين هم مخلوقون على « صورة الله » .

٣٠ ـ يجـب ، إذن ، أن نخـاف الله وحـــده و ان نحتقر الشياطين بلا خوف . بل كلما أكثرت من فعل هذه الأمور ، يجب ان نكثّف نسكنا ضدهـا ، لأن السـلاح الكبـير ضد الشياطين هو حياة مستقيمة وإيمان بالله . فهي تخاف صوم النسّاك وسهرهم وصلواتهـم ووداعتهـم وسكينتهـم وعـدم محبتهم للفضة وكرههم للمجد الباطل، و اتضاعهم ومحبتهم

للفقراء وإحساناتهم وعدم غضبهم ، وقبل كل شيء إيمانهم بالمسيح . النسّاك يفعلون هذه الأمور ، لكي لا تخدعهم الشياطين ، ولأنهم يعرفون النعمة التي وهبها المخلص للمؤمنين ضدهم . « ها أنا أعطيكم سلطاناً تدوسون به الحيّات والعقارب وكل قوة للعدو» (لوقا ١٠ : ١٩).

٣١ ـ إذا ما تظاهرت بالنبوءة ، لا تبالوا بها . فهي تعلن قبل أيام عن الإخوة الذين سنلتقي بهم بعد تلك الأيام ، فيأتي أولئك فعلا . وهي لا تفعل هذا لعدم مبالاتها بالسامعين ، بل لكي تقنعهم فيثقوا بها أكثر . لكن بعد أن يصبحوا ملك أيديها تنقضّ عليهم . لذلك يجب ألاّ ننصت إليها عندما تتنبأ بل يجب ان نفحمها ، لأننا لا نحتاج إليها . فما هو العجب ، ان كانت ذوات أجساد أكثر خفة من أجساد الناس ، فتراهم حينما يبدأون السير ، وتسبقهم في الطريق معلنة قدومهم ؟ هذا ما يقدر أن يتنبأ به أي فارس ، لأنه يسبق الذي يسير على قدميه . فلا نعجب من هذه المقدرة ، لأنها لا تعرف الأمور التي لم تحدث . الله وحده هو الذي يعرف كل شيء قبل حدوثه . هي تركض كسارقة لتعلن ما تراه . فإلى كم من الناس تعلن الآن ما يختص بنا ، نحن الذين اجتمعنا ضدها ، فقبل أن يترك الواحد منّا

المكان تسرع لتخبر عنه . هذا ما يستطيع ان يقوم به ولد يقوى على الركض بسرعة ، لأنه يسبق الذي يسير ببطء . أعني انه إذا ابتدأ بالسير من طيبة ، أو من أي مكان آخر ، فإنها لا تقدر ان تعرف قبل انطلاقه ما إذا كان سيسير . انها تركض لتعلن عن قدومه قبل وصوله . وهكذا يأتي الرجل بعد أيام . كثيراً ما يعود السائر قبل أن يصل فتكذب الشياطين .

٣٢ ـ أحياناً تثرثر بالطريقة ذاتها حول مياه الأنهار ، أي أنها ترى الأمطار وهي تهطل في مناطق الحبشة ، فتدرك ان المياه ستسبب فيضاناً في النيل . لذلك تركض لتخبر عن الفيضان قبل وصول المياه الى مصر . لو كان الناس يستطيعون العدو مثلها ، لأخبروا عن الأمر . ان حارس (أو مخبر) داود صعد إلى مكان عال فرأى رجلا وهو يقترب أفضل مما رآه الذي كان في الأسفل . لذلك سبق الآخرين وأخبر داود . هذا يعني انه لم يخبر بالأمور التي لم تحدث ، بل بالأمور التي كانت تجري في الطريق وتحدث فيها (صموئيل الثاني ١٨ : ٢٤) . هذه تفضل أن تتعب نفسها وتخبر الآخرين بما يحدث ، حتى تخدعهم . لكن إذا فكرت العناية الإلهية في شيء يتعلق بالماء أو بالمسافرين

ـ وهي تملك القدرة على ذلك ـ تظهر الشياطين كاذبة وتظهر الذين آمنوا بها أنهم مخدوعون .

٣٣ ـ هكذا تأسس سحر الهلينيين ، وهكذا خدعتهم الشياطين . لكن هكذا توقف الضلال أيضاً ، لأن الربّ أتى وأبطل الشياطين مع حبائلها . هي لا تعرف شيئاً من ذاتها ، بل تنقل كاللصوص ما تراه عند الآخرين . وهي تقوى على التخمين لكنها لا تقوى على المعرفة السابقة . لذلك ينبغي ألاّ نعجب بها ، حتى لو تكلمت بالصدق أحياناً . فالأطباء ذوو الخبرة ، عندما يجدون المرض نفسه عند الآخرين يتأملون فيه ويخبرون مسبقاً عنه . هذا ما يفعله أيضاً قوّاد السفن والفلاّحون ، الذين ينظرون إلى حالة الطقس ، فينبئون من خلال خبرتهم ، إذا كان الهواء سيكون عاصفاً أو لطيفاً . فلا يزعم أحد بأن الشياطين تتنبأ بوحي إلهي ، إذ تنطق من خلال خبرتها وتمرّسها . فإذا تنبأت عن بعض الأمور من خلال تخميناتها ، فلا يتعجبنّ أحد منها ولا يصغينّ إليها . فماذا ينتفع الذين يصغون إلى الشياطين ، إذا ما عرفوا المستقبل قبل أيام ؟ لماذا يهتمون بمعرفة المستقبل منها ، حتى لو كانت هذه المعرفة صحيحة ؟ فالمعرفة لن تصنع الفضيلة ولن تكون علامة للخُلق الصالح . فلن يدان أحد منّا ، لأنه يجهل المستقبل ، ولن

يطوّب إذا ما عرفه ، إذ أن المرء سيُحاكم على صونه للإيمان وحفظه للوصايا .

٣٤ ـ فلنعرض عن إعطاء الشياطين أية قيمة ، كذلك يجب ألاّ نتعب في حياة النسك للحصول على نعمة معرفة المستقبل ، بل لإرضاء الله بسيرتنا ، وألاّ نصلّي للحصول على موهبة العلم بالمستقبل ، وألاّ نطلب هذا كأجرة لنسكنا ، بل ليكن الرب متدائباً معنا في انتصارنا على الشيطان . أما إذا اهتمّ أحدنا بمعرفة المستقبل فليطهّر فكره ، لأنني أؤمن بأن النفس المتطهّرة من الأفكار الشريرة والمحافظة على الطبيعة التي خلقها الرب فيها ، تقدر أن تكون رائية أكثر ، وأن تنظر إلى أبعد مما يراه الشيطان . فهي تملك الرب الذي سيعلن لها كل شيء . ان نفس النبي أليشع رأت كل ما سيفعله جيزي وكل القوات الموجودة في الجبل .

٣٥ ـ إذا ما أتتكم الشياطين ليلا وأرادت التحدث عن المستقبل أو قالت : نحن ملائكة ، فلا تنصتوا إليها ، لأنها كاذبة . وإذا ما مدحت نسككم وطوّبتكم فلا تقتنعوا بما تقوله لكم ولا تنصتوا إليها . بل اختموا أنفسكم وبيوتكم بإشارة الصليب وصلّوا ، ثمّ انظروا إليها فتجدوها انها تختفي . فهي تخاف من إشارة الصليب لأن المخلص عرّاها

من كل قوة مشهّراً إياها . لكن إذا ما أصرّت على إزعاجكم بوقاحة أشد ، آخذة بالرقص وتغيير الشكل ، فلا تخافوا ولا تصغوا إليها كصالحة . إذ من السهل تمييز مظاهر الأرواح الشريرة عن الأرواح الصالحة ، لأن الرب يعطينا قوة هذا التمييز . ما ظهور الأرواح الصالحة مرعباً ، لأنها لا تجد في ظهورها من تتصارع معه ومن يصرخ ويسمع صوتها (أشعياء ٤٢ : ٢) . ظهور هذه الأرواح هادىء وصامت ، ويخلق فرحاً في النفس وشجاعة . فالرب معها وهو فرحنا وهو قوة الله الآب . أما الأفكار التي تخلقها هذه الظهورات فتبقي النفس غير متزعزعة إلى أن تنيرها من هذا الفرح ، فتعرف ما هي الأرواح التي تظهر لها ، إذ أن الشوق الإلهي وشوق الخيرات الآتية تتملكان النفس ، فتبتغي أن تنضم إليها وأن ترحل معها . إذا كان هناك من يخاف ظهور الأرواح الشريرة ، فهذه الأرواح (الصاحلة) تطرح عنهم الخوف جانباً بالمحبة التي تظهرها ، كما فعل غفرئيل مع زخريا (لوقا ١ : ١٣) ، وكما فعل الملاك الذي ظهر للنسوة عند قبر الرب (متى ٢٨ : ٥) . وعندما ظهر للرعاة قال لهم : «لا تخافوا» (لوقا ٢ : ١٠) . ان خوف أولئك لم يكن نتيجة الجبن ، بل نتيجة اليقين بظهور الملائكة الصالحين ، هذا هو ظهور الملائكة القديسين .

٢٦ ـ أمّا هجوم الأرواح الشريرة وظهورها الخيالي فيرافقه جلبة وضربات وأصوات وصراخ ، كهجوم الأولاد الأشرار واللصوص . فحين ظهورها يسيطر الرعب واضطراب النفس وتشويش الفكر والتهجم وكره النّساك والتهامل والحزن وتذكر الأقرباء وخوف الموت . وفوق ذلك رغبة في الشر وكسل في اكتساب الفضيلة واضطراب في الخلق . إذا رأيتم روحاً واعتراكم الخوف أولا ثم حلّ محله فرح لا يعبّر عنه وحماس وشجاعة و إقدام ومحبة لله ، فتشجعوا وصلّوا للرب . هذا الفرح و استقرار النفس يظهران قداسة الملاك الحاضر. وهكذا أحسّ ابراهيم بالفرح الروحي عندما رأى السيد و ارتكض يوحنا السابق من الفرح عندما تكلمت والدة الإله مريم (لوقا ١ : ٤١). لكن إذا ما رأينا أرواحاً وأثارت اضطراباً وضربات خارجية وتخيلات دنيوية وتهديداً بالموت وكل ما ذكرناه سابقاً، فلنعرف بأن هذا هجوم أرواح شريرة.

٣٧ ـ وهذه أيضاً علامة لكم : اعلموا بأن الرعب الذي يثار في النفس هودليل على وجود الأعداء ، لأن الشياطين لا تطرح خوف الظهورات جانباً ، كما فعل الملاك غفرئيل مع مريم وزخريا والذي ظهر للنسوة عند القبر ، بل إنها تزيد

من ظهوراتها عندما ترى الذين يرتعبون خوفاً ، لكي تكثر من خوفهم . وعندما تخضعهم تهزأ منهم قائلة : انحنوا و اسجدوا . هكذا خدعت الوثنيين لتجعلهم يؤمنون بآلهة كاذبة ، غير أن الرب لم يسمح للشيطان بأن يخدعنا ، إذ وبّخه عندما ظهرت له الرؤية في البرية فقال له : « ابتعد عنّي يا شيطان ، لأن الكتاب يقول : للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » (متى ٤ : ١٠) . لذا يجب أن نحتقر دوماً المضل أكثر فأكثر ، لأن الرب قال هذا الكلام من أجلنا . عندما ستسمع الشياطين من فمنا الكلمات ذاتها ، ستُهزم بقوة، هاربة من وجه الرب الذي وبّخها على هذا النحو.

٣٨ ـ لا نفتخر بأننا نطرد الشياطين ولا نتبجح بأننا نشفي المرضى ، ولا نعجب ممن يملك سلطان طرد الشياطين ولا نحتقر من لا يملك هذا السلطان . لكن ليعرف كل منّا نسك الآخر كي يقتدي به وينافسه أو لكي يصلحه . ففعل العجائب ليس منا ، بل من المخلص . لذلك قال الرب لتلاميذه: «لكن لا تفرحوا بأن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بأن أسماءكم مكتوبة في السماوات » (لوقا ١٠ : ٢٠) . فكتابة أسمائنا في السماوات إشارة إلى فضيلة حياتنا ، بيد أن طرد الشياطين موهبة معطاة من الرب .

لذلك يقول للذين لا يفتخرون بفضيلتهم ، بل بالآيات التي يفعلونها: «يا رب أما باسمك نطقنا بالنبوءات؟ وباسمك طردنا الشياطين ؟ وباسمك عملنا العجائب الكثيرة ؟ فأقول لهم: ما عرفتكم مرة » (متى ٧ : ٢٢ - ٢٣) ، لأنه لا يعرف طريق الضالين . وكما قلت آنفاً ، ينبغي أن نصلّي على الدوام كي نكتسب موهبة تمييز الأرواح ، كي - كما كتب - « لا نصدق كلّ روح » (١ يوحنا ٤ : ١) .

٣٩ ـ كنت أودّ أن أصمت وألاّ أورد شيئاً عن حياتي مكتفياً بما قلت ، لكن لكي لا تظنوا بأن ما قلته سرد عادي ، بل من خبرتي الحياتية ومن حقائق ثابتة ، فسأكمل الكلام حتى لو بدوت أحمق . وأقول كم من حبائله شاهدت بأمّ عيني . فالرب الناظر إلى ضميري النقي يعرف أنني لا أقول هذه من أجل نفسي ، بل من أجل محبتكم ونصحكم . كم مرةٍ طوّبتني الشياطين ، لكنني باسم الرب أبدتها ! كم مرةٍ تنبأت عن فيضان النيل ، لكنني كنت أقول لها لِمَ هذا الإهتام بالأمر ! أتت مرة مهدّدة فأحاطت بي كالجنود المدججين بالسلاح . ومرة ملأت البيت بالأحصنة والوحوش والزحافات ، أما أنا فكنت أرتل: «هؤلاء

بالمركبات وهؤلاء بالخيول ، أما نحن فباسم الرب إلهنا نتعظّم » (مزمور ١٩ : ٨) . بهذه الصلوات أبعد الرب الشياطين عنّي . وأتت مرة في الظلام حاملة نوراً خيالياً وقالت : أتينا لننيرك يا أنطونيوس . فأغلقت عينيّ وصلّيت فانطفأ نور الأشرار للحين . بعد أشهر أتت ترتل وتتفوّه، بآيات كتابية، «لكنني كنت كأصمّ لا يسمع» (مزمور ٣٧ : ١٤). مرة أخرى هزّت الدير كله، أمّا أنا فكنت أصلّي محافظاً على عقلي من التزعزع . بعد ذلك أتت تصفّق وتصفّر وترقص . لكن عندما بدأت أصلّي ، وعندما اضطجعت وأنا أرتل في داخلي ، ابتدأت تنوح وتبكي ، وكأنها فقدت قوتها . وأنا مجّدت الرب الذي أخفق قوتها ، وأظهر وقاحتها وجنونها .

٤٠ ـ ظهر مرة شيطان طويل القامة جداً بعظمة وتجرأ على القول : أنا هو قوة الله ، أنا هو العناية الإلهية . ماذا تريد أن أعطيك ؟ أما أنا فذكرت اسم المسيح وبصقت عليه محاولا لطمه، و اعتقد بأنني لطمته. وحالما سمع الطويل القامة اسم المسيح اختفى مع كل من معه. وكنت مرة أخرى صائماً فأتى إليّ ذلك المخادع كراهب يحمل في يديه خبزاً خيالياً ونصحني قائلاً: كُلْ وكفّ عن العذابات

الكثيرة ، أنت إنسان وسوف تمرض . لكنني أدركت حيلته ، ولذلك نهضت للصلاة . لكنه لم يحتمل فاختفى للحين وبدا كأنه يخرج من الباب كالدخان . كم مرةٍ أظهر لي في الصحراء ذهباً خيالياً حتى ألمسه وانظر إليه . لكنني كنت أرتل من كل القلب وذلك كان يذوِّب من شره . كم مرةٍ جرّحني وأنا كنت أردد « لن يفصلني شيء عن محبة المسيح » (رومية ٨ : ٣٥) . فكان كل شيطان يجرّح الآخر . لم أكن أنا الذي أوقفته وأبطلت عمله ، بل الرب القائل : « رأيت الشيطان يسقط من السماء مثل البرق » (لوقا ١٠ : ١٨) . يا أولادي ، انني أتذكر دائماً قول الرسول « جعلت من نفسي مثالا » (١ كور ٤ : ٦) ، كي لا تتهاونوا في نسككم ، وكي لا تخافوا من تخيلات الشيطان وجيشه .

٤١ ـ صرت أحمق وأنا أقص عليكم هذه الأمور . لكن تقبّلوها من أجل أمانكم وشجاعتكم وصدقوني فإنني لا أكذب . قرع شخص باب الدير مرة ، ولما خرجت وجدت شخصاً طويلاً وضعيفاً. عندما سألته من أنت ؟ قال أنا هو الشيطان . ولما سألته لماذا أتيت إلى هنا ؟ قال : لماذا يلومني جميع الرهبان والمسيحيون باطلا ؟ ولماذا يلعنوني كل الوقت ؟ عند ذلك قلت له : لماذا تزعجهم ؟ قال : انا لا

أزعجهم لأنني ضعيف . وهم الذين يجعلون أنفسهم مضطربة ، ألم يقرأوا: «فنيت سيوف العدو كل الفناء . دمّرت مدنهم » (مزامير ٩ : ٦) . لا مكان لي ولا سلاح ولا مدينة . الناس اعتنقوا المسيحية في كل مكان ، والصحراء امتلأت بالرهبان . يجب أن يحافظوا على أنفسهم ،وألاّ يلعنوني باطلا . حينذاك اندهشت من نعمة الرب وقلت له : مع أنك تتكلم دائماً بالكذب ، فإنك قلت الآن الحقيقة دون أن تريد ، لأن المسيح أتى حقاً وجعلك ضعيفاً وبانتصاره عليك عرّاك . حالما سمع اسم المخلص لم يحتمل الغليان وصار غير مرئي .

٤٢ ـ طالما أن ابليس نفسه يعترف بأنه لا يقوى على شيء، فمن الواجب ان نحتقره مع شياطينه أيما احتقار. ان حبائله مع حبائل كلابه عديدة ، لكننا نحن العارفين ضعفه نقوى على احتقاره . ولذلك ينبغي ألاّ نخسر شجاعتنا وألاّ ترتعب نفوسنا وألاّ تثار في دواخلنا مخاوف فنقول : أترى سيأتي الشيطان ويقضي علينا ؟ هل سيقبض عليّ ويرميني إلى الأسفل ؟ أم أنه سيظهر فجأة ويختفي ؟ لا ندعنّ أفكاراً كهذه تدور في ذهننا ولا نحزن وكأننا هالكون . بل لنكن ذوي شجاعة وفرح وكأننا مُخَلَّصون . ولنفكر في أن الرب

الذي أضعفهم وضيّق عليهم الخناق هو معنا دائماً . لنتذكر ولنضع في فكرنا أن أعداءنا لن يفعلوا شيئاً ، ما دام الرب معنا . عندما تأتي الشياطين إلينا تعاملنا حسب حالتنا النفسية مكيّفة التخيلات التي تثيرها وفق أفكارنا . فحينما تجدنا خائفين ومضطربين تهجم مثل اللصوص الذين يجدون المكان بلا حراسة ، وتفعل بمغالاة ما تجدنا مفكرين فيه . وإذا ما وجدتنا خائفين وجبناء ، فإنها تكثر من التخيلات والتهديدات كي تعذّب النفس الشقية . أما إذا وجدتنا فرحين مع الرب ومفكّرين في الصالحات الآتية وواضعين في فكرنا كل ما يفرح الرب ومؤمنين بأنها لا تملك قوة على المسيحيين فإنها تبتعد خازية . هكذا عندما رأى العدو أيوب مُحصّناً جداً هرب من أمامه (أيوب الفصل الأول والثاني) ، لكنه وجد يهوذا عارياً من هذه الأفكار فأسره (يوحنا ٢٣ : ٢٧) . كيما نزدري بالعدو يجب أن نتذكر دائماً الإلهيات وأن تكون نفسنا فرحة ، فنرى فخاخ العدو تعلو كالدخان . ان الشياطين تهرب بدل أن تطاردنا فهي جبانة وتنتظر دائماً النار المعدة لها .

٤٣ ـ لتكن هذه العلامة عندكم كي تتشجعوا . فكلما ظهر للواحد منّا خيال لا يخافنّ ، بل ليسل من أنت ؟ ومن

أين أتيت ؟ إذا كانت هذه الرؤية رؤية قديسين ، فإن أولئك سيحوّلون خوفكم ، عندما يكون الفكر قوياً وسائلا من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ هكذا سأل يشوع بن نون وعرف الرؤية (يشوع ٥ : ١١) ، والعدو لم يغفل عن دانيال عندما سأله هذا (دانيال ١٠ : ١١ ـ ١٨ : ١٩).

الصحراء مدينة المحبة

٤٤ ـ سرّ الجميع بكلام أنطونيوس . فازداد حبّ الفضيلة عند البعض وانتفى التهامل عند البعض الآخر وزال الكبرياء عند آخرين . فتعجب الجميع من النعمة التي وهبها الرب إلى أنطونيوس في تمييز الأرواح ، و اقتنعوا بازدراء الهجمات الشيطانية . وتحوّلت الأديار في الجبال إلى مساكن مملوءة بالأجواق الإلهية التي ترتل وتحب كلمة الرب وتصوم وتصلّي وتفرح برجاء الخيرات الآتية وتجاهد في الإحسان ، والتي سادت بينها المحبة والتآلف . ان المرء يستطيع ان يرى مكاناً يتقي الله ويحب البر في طبيعته . فما من يَظْلُم أو من يُظْلَم وما من يعيرّ جابي الضرائب . فهناك مجموعة من النسّاك يجمعها فكر واحد هو اكتساب الفضيلة ، حتى ان من يرى الأديار والإنسجام بين النسّاك

يصرخ : « ما أجمل مساكنك يا يعقوب وخيامك يا إسرائيل كأودية عميقة وكجنّة على النهر وكخيام نصبها الرب وكالأرز قرب المياه » (عدد ٢٤ : ٥ ـ ٦) .

٤٥ ـ عاد أنطونيوس ليمارس النسك وحده في ديره ويكثّف رياضته الروحية ويتنهد يومياً ويتذكر الأمور السماوية متشوقاً إليها ومتأملا في قصر حياة الإنسان. عندما كان يزمع بالأكل أو النوم أو قضاء الحاجات الجسدية الأخرى كان الخجل يعتريه ، لأنه كان يفكر في روحانية النفس . وعندما يأكل مع الرهبان الآخرين كان يتذكر الطعام الروحي فيتنحى عن موضعه ، لأنه كان يظن بأنه سيحمرّ خجلا ، إذا ما رآه الآخرون وهو يأكل . لكن عندما كان وحيداً كان يأكل بسبب حاجة الجسد . فكثيراً ما أكل مع الإخوة وهو خجل ، لكنه كان يتعزى ، لأنه كان يتكلم كلاماً نافعاً . فكان يقول انه يجب ان نخصص وقتاً للنفس أكثر من الجسد ، وأن نسمح بوقت قصير للجسد بسبب الحاجة. ويجب ان نخصص كل الباقي للنفس و ان نطلب منفعتها ، لكي لا تنجرف بلذائذ الجسد ، بل ان نخضع الجسد للنفس . هذا ما ابتغاه الرب من قوله : « فلا تطلبوا ما تأكلون وما تشربون ولا تقلقوا ، فهذا كله يطلبه

أبناء هذا العالم ، وأبوكم السماوي يعرف انكم تحتاجون إليه . بل اطلبوا ملكوت الله ، وهو يزيدكم هذا كله » (لوقا ١٢ : ٢٩ - ٣١) .

موقفه البطولي أثناء إضطهاد مكسيمينوس

٤٦ - بعد ذلك ساد الكنيسة إضطهاد في عهد مكسيمينوس . ولما اقتيد الشهداء القديسون إلى الاسكندرية كان أنطونيوس يتبعهم ، لأنه ترك الدير قائلا : لنذهب نحن أيضاً ، كي نجاهد إذا ما دعانا الرب أو حتى نرى المجاهدين . فكان يحدو به شوق نحو الاستشهاد ، لكن بما أنه لم يشأ أن يسلم نفسه كان يخدم المعترفين بالإيمان في السجون والمناجم وكان يشدّد غيرتهم في المحكمة ، إذ جاهد من أجل تشديد حماس المدعوين إلى المحاكمة . وكان يقبِّل الشهداء ويرافقهم حتى يقضوا نحبهم . ولما رأى القاضي شجاعته وشجاعة مرافقيه وغيرتهم أمر ألاّ يظهر أحد من الرهبان أثناء المحاكمة وألاّ يبقوا في المدينة . وفي حين فكَّر الرهبان الآخرون في الإختفاء في ذلك اليوم ، فإن أنطونيوس لم يبال بهذا الأمر ، بل غسل ثوبه جيداً ووقف في اليوم الثاني في مكان مرتفع أمام القائد حتى يراه بوضوح . فتعجب الجميع من شجاعته ، لأنه كان يسير مع

رفاقه دون خوف أمام القائد ، مظهراً الغيرة التي نتمتع بها نحن المسيحيين . كان يصلّي لكي يستشهد ، كما قلت سابقاً ، وكان يبدو حزيناً لأنه لم يستشهد لكنّ الرب حفظه من أجل منفعتنا ومنفعة الآخرين ، حتى يكون معلماً في النسك الذي قبله من الكتاب المقدس . وعندما رأى الكثيرون أسلوب حياته أظهروا رغبة في أن يقتدوا به . هكذا كان يتبع المعترفين بالإيمان كي يخدمهم مجدّاً في الأمر وكأنه أسير معهم .

عجائبه

٤٧ ـ عندما توقف الإضطهاد الذي استشهد فيه الأسقف بطرس الكلي الطوبى عاد إلى الدير ليقدم في كل يوم شهادة الضمير ، مجاهداً في سبيل مآثر الإيمان وفي سبيل ممارسة نسك أكبر وأكثف . فكان يصوم دائماً متخذاً لنفسه لباساً من الجلد مكسواً بالشعر من الداخل . و ارتدى هذا اللباس حتى موته ، فكان لا يغسل جسده بالماء لينظّفه ، ولا يغسل رجليه ، بل لا ينهض ليضعهما في الماء بدون ضرورة ملحّة . لم يشاهده أحد وهو يخلع ثيابه ، ولم يشاهد أحد عُري جسده إلاّ عندما مات ودفن .

٤٨ ـ عندما قرّر الاعتزال طويلا في منسكه لا يستقبل

أحداً من زائريه ، أتى إليه قائد للجيش اسمه مرتينيانـوس مع جمع كبير ، لأنّ ابنته كانت تعذبها الشياطين . ولما أمضى وقتاً طويلا وهو يقرع الباب بصبر، راجياً منه أن يخرج كي يصلّي إلى الله من أجل ابنته ، أطلّ عليه من فوق دون أن يفتح الباب وقال له : لماذا تناديني أيها الإنسان صارخاً؟ أنا إنسان مثلك . فإذا كنت تؤمن بالمسيح الذي أعبده ، اذهب وصلّ إليه كما تؤمن فتُستجاب طلبتـك . للحـين انصرف القائد مؤمناً وطالبـاً مساعـدة يسـوع، فتطهـرت ابنتـه من الشيطان . وهكذا فعل الله بواسطـة أنطـونيوس عجائـب كثيرة، فهو القائل «اطلبوا تجدوا» (لوقا ١١ : ٩). فكثير من المتـألمين كانـوا يشفـون وهـم نائمـون خارج ديره مؤمنـين ومصلّين بصدق.

سكناه في الصحراء الداخلية

٤٩ ـ لما رأى أنطونيوس ان الناس يزعجونه ولا يفسحون له في المجال لممارسة النسك كما يرغب ويريد ، ولما خاف من أن يفتخر بالأمور التي يفعلها الرب بواسطته أو أن يتكبّر أو أن يظنه الناس أكثر مما هو ، فكّر في الصعود الى طيبة العليا حيث لا يعرفه أحد . وأخذ من إخوته بعض كسر من الخبز وجلس على ضفة النهر ينتظر مرور سفينـة حتـى يستقلّهـا

ويبحر معهم . وفيما هو يفكر في هذا سمع صوتاً من فوق يقول له : إلى أين أنت ذاهب يا أنطونيوس ؟ ولماذا ؟ أجاب بلا اضطراب ، إذ اعتاد أن يُدعى بهذه الطريقة وقال : بما أن الناس لا يسمحون لي أن أعيش في السكينة فإنني أودّ الصعود إلى طيبة العليا . فالناس يزعجونني ويطلبون منّي أن أقوم بأعمال تفوق قوتي . فقال له الصوت: حتى لو انتقلت إلى طيبة أو نزلت إلى فوكوليا (المراعي الريفية)، كما ترغب ، فإنك ستتحمل تعباً مضاعفاً . إذا ما أردت أن تعيش في سكينة ، إذهب إلى الصحراء الداخلية . وعندما سأل أنطونيوس : من سيريني الطريق ، ما دمت لا أعرفه ؟ أرشدته جماعة عربية إلى سلوك تلك الطريق ، إذ توجّه إليها ودنا منها راجياً ان يصحبها إلى الصحراء ، فقبلت وكأنه تدخّل العناية الإلهية . فسار معها ثلاثة أيام وليال حتى وصل إلى جبل عال فيه مياه باردة وعذبة. وفيه سهل يضم أشجاراً مهملة من النخل .

٥٠ ـ أحبّ أنطونيوس المكان ، لأنه كان المكان الذي قاده إليه الله . انه المكان الذي أشار إليه ذاك الذي كلّمه ، إذ كان على ضفتي النهر . عاش بادىء الأمر وحده ، دون أن يكون أحد بجانبه ، بعد أن قبل بضع كسر خبز من الذين رافقوه . وأخذ يحسب المكان هذا بيتاً له . ولما رأى

العرب غيرة أنطونيوس كانوا يمرون خصيصاً من ذلك الطريق ليقدموا له الخبز بفرح . وكان يقتات كذلك ببعض ثمار النخل . بعد وقت عرف الاخوة المكان الذي يقطن فيه ، فأخذوا يرسلون له طعاماً ، كالأولاد الذين يتذكرون أباهم . لكنه أحس أن بعض الرهبان يتحملون المشقة بسبب الخبز ، فأشفق عليهم وفكّر في نفسه أن يحمل إليه بعض الذين يزورونه مِعْوَلا وفأساً وبعض القمح . ولما أحضروها طاف في الأرض التي حول الجبل ، فوجد مكاناً صغيراً ذا ماء غزير للريّ ففلحه وزرعه . كان أنطونيوس يقوم بهذا العمل كل سنة لتحصيل خبزه . وكان فرحاً بهذا العمل ، لأنه لم يزعج أحداً ولم يثقّل على أحد . ومن ثمّ زرع بعض الخضار ، لأن البعض كانوا يزورونه ، فتكون لهم راحة من عناء الطريق الشاق . أما وحوش البرية فكانت تأتي لتشرب ، لكنها كثيراً ما أتلفت البذار والزرع ، فأمسك بلطف وحشاً وقال للوحوش : لماذا تسبّبون لي الأذى وأنا لم أصنع معكم شرّاً ؟ ابتعدوا ، وباسم الرب لا تقتربوا من هذا المكان . ومنذ ذلك الحين لم تعد تقترب منه ، وكأنها خافت من هذا الكلام .

صراعه ضد الشياطين

٥١ ـ هكذا كان أنطـونيوس في الجبـل منهمـكاً في الصلوات والنسك . أمّا الإخوة الذين كانوا يخدمونه فرجوه أن يأتـي مرة في الشهـر ، لكي يحملـوا إليه زيتاً وزيتونـاً وبقولا ، إذ أصبح شيخاً . وطوال الوقت الـذي عاش فيه هناك لم يصارع ، كما كُتب ، لحماً ودمـاً ، بل الشياطـين الثائرة (أفسس ٦ : ١٢) كما عرفنا من زائريه . انهم كانوا يسمعـون ضجيجـاً وأصواتـاً عالية وضربـات مثـل جلبـة السلاح . وكانوا يرون الجبل مليئاً بالوحوش أثناء الليل ، وكانـوا يرونـه وكأنـه يحارب كائنـات منظـورة ، ويصلّي ضدها . وكان يشجع الـذين يزورونـه وهـو يجاهـد حانياً ركبتيه ومصلّياً للرب . ولهذا السبب يستحق الإعجـاب ، لأنه فيما كان وحيداً في صحراء كهذه ، لم يخف من الشياطين التي تهاجمه ومـن ضراوة الوحـوش الكثـيرة ذوات الأربـع والزحافات ، بل كان يضع رجاءه ـ كما كُتب ـ على الرب ، حافظاً عقله غير متزعـزع وغـير مضطـرب كجبـل صهيون (أنظـر مزمـور ١٢٤ : ١) . فهربـت الشياطـين وسالمتـه الوحـوش الضـارية ، كما يقـول الكتـاب (أنظـر أيوب ٥ : ٣) .

٥٢ ـ إلاّ أن الشيطان ظلّ ينظر إليه بغاية شريرة ـ كما يرنّم داود ـ صارفاً عليه بأسنانه (مزمور ٣٤ : ١٦) . لكنّ أنطونيوس حصل على تعزية من الرب ، فحُفظ مصاناً من حبائل العدو ومكائده . وبينما كان ساهراً ذات يوم أفلت الشيطان الوحوش ضده ، فخرجت في تلك الصحراء جميع الضباع تقريباً من مرابضها لتحيط به . وكان هو في وسطها ، ففتح كل ضبع فمه مهدداً بنهشه . أما أنطونيوس فأدرك حيلة العدو وقال للضباع : إذا كنت تملكين ، أيتها الضباع ، قوة عليّ فها أنا مستعد لأن أكون طعاماً لك . وإذا كانت الأبالسة هي التي أرسلتك إليّ فلا تتواني في الإنصراف ، لأنني أنا عبد للمسيح . ولما قال هذا الكلام ابتعدت وكأنها طردت بسوط كلامه .

٥٣ ـ بعد أيام وفيما هو يعمل (لأنه كان يحرص على العمل الجاد) وقف شخص في الباب وشدّ طرف الخوص ، إذ أنه كان يصنع سلالا ويعطيها لزائريه بدل ما يحملون له . فنهض ورأى وحشاً يشبه الإنسان حتى فخذيه، والحمار في ساقيه ورجليه . أما أنطونيوس فرسم إشارة الصليب وقال : أنا عبد المسيح فإنْ أُرسلت ضدي فأنا موجود أمامك . هكذا هرب الوحش مع شياطينه بسرعة قصوى حتى أنه سقط و مات. ان موت الوحش كان هزيمة للشياطين، لأنها

سعت سعياً حثيثاً وبكل الوسائل كي تبعده عن الصحراء ، فلم تقدر .

٥٤ ـ عندما رغب الرهبان في أن ينزل لزيارتهم وزيارة أماكنهم لوقت قصير ، رافق الذين التقى بهم . فحمّلوا الجمل خبزاً وماء ، لأن الصحراء كلها كانت جافّة ، لا ماء فيها يصلح للشرب سوى في ذلك الجبل ، الذي كانوا يستقون منه والذي كان فيه الدير . في الطريق فرغ الماء ، وكان الحر شديداً حتى أمسوا في خطر شديد . فجالوا في المكان فلم يجدوا ماء . ولم يقدروا على السير ، بل سقطوا على الأرض وتركوا الجمل ، فاستولى عليهم اليأس وأحس الشيخ أن الخطر أحدق بهم ، فتنهد بحزن و ابتعد عن المكان ورفع يديه وجثى على ركبتيه وصلّى . فللوقت أخرج الرب ماء حيث وقف أنطونيوس للصلاة . فشربوا جميعهم و استراحوا . ولما ملأوا الجرار ماء بحثوا عن الجمل فوجدوه ، إذ أن الحبل التف حول حجر . فأتوا به وسقوه ماء وحمّلوا الجرار عليه وساروا بسلام . وعندما وصلوا إلى الأديار الخارجية كان الجميع ينظرون إليه كأب مقبّلين إياه ، وكأنه أتاهم بالزاد من الجبل . فحيّاهم بكلامه وقدّم إليهم المنفعة . فحصل في الجبل فرح وغيرة من أجل التقدم الروحي والتعزية بالثقة المتبادلة . وهو فرح كل الفرح عندما

رأى حماس الرهبان وأخته التي شاخت في البتولية والتي كانت ترشد متبتلات أخريات .

عجائب الشفاء

٥٥ ـ بعد أيام عاد إلى الجبل ، فابتدأ العديد من الناس بالقدوم إليه ، وتجاسر مرضى آخرون على الدخول . فكان دائماً يحثّ النسّاك الذين يزورونه على الإيمان بالله وعلى محبتهم له ، وحفظ أنفسهم من الأفكار الشريرة واللذات الجسدية ، كما كُتب في سفر الأمثال: « لا تنخدعوا بشبع البطن » (أمثال ٢٤ : ١٥) ، وعلى تجنب المجد الباطل ، والترتيل قبل النوم وبعده ، والصلاة المستمرة ، وحفظ وصايا الكتاب المقدس عن ظهر قلب ، وتذكّر أعمال القديسين وتقليد غيرتهم ، كيما تفكر النفس في الوصايا . ثم نصحهم بالتأمل الدائم في قول الرسول : «لا تغرب الشمس على غضبكم » (أفسس ٤ : ٢٦) . هذه الوصية تنطبق على كل وصية أخرى ، أي أن لا تغيب الشمس على أية خطيئة فعلناها . انه لحسن ، بل لضروري أن لا تديننا الشمس بفكر شرير وأن لا يديننا القمر بخطيئة ليلية أو بفكر شرير . ولكي ننزع هذه الأفكار يحسن ان نتذكر قول الرسول: «امتحنوا وحاسبوا أنفسكم » (٢ كور

١٣ : ٥) . ليطالب المرء نفسه في كل يوم باحثاً عن سبب لأعماله النهارية والليلية . فإذا لم يخطأ لا يفتخر ، وإذا خطيء فليتوقف عن فعل الخطايا ، متمماً فعل الخير بلا تكاسل ، ودون أن يدين قريبه أو أن يبرّر نفسه ، كما قال الرسول المطوّب ، حتى يأتي الرب الذي يفحص خفايا القلوب (أنظر ١ كور ٤ : ٥ ، ورومية ٢ : ١٦) . ففي أعمالنا كثيراً ما ننسى أنفسنا . إننا نجهل أنفسنا ، لكنّ الرب يدرك كل شيء . بما أننا ننسب الدينونة إلى الرب فليشارك الواحد منّا أحزان الآخر حاملا أثقاله ، ولنمتحن أنفسنا ، ولنهتمّ بأن نكمّل نقائصنا . أخيراً إليكم الملاحظة التالية من أجل أمانكم الروحي ، وهي أن يكتب كل واحد منكم أعماله ورغبات نفسه وكأنه سيعلنها للآخرين . تأكّدوا بأننا سنخجل من أن تكون أعمالنا مشاعة . وبسبب هذا الخجل سنكفّ عن فعل الخطيئة ، وعن تذكّر أمر شرير . من هو ذلك الخاطيء الذي يريد أن يراه الناس أثناء ارتكابه الخطيئة ؟ أو من هو ذلك الذي يفعل الخطيئة ولا يكذب حتى يبقى مجهولا ؟ فكما اننا لا نرتكب الفحشاء عندما ننظر إلى بعضنا البعض ، هكذا فلندوّن أفكارنا الشريرة وكأننا نعلنها للآخرين . اننا لن نفكّر في الشرور على الإطلاق خجلا من أن تصبح مدوّنة . هكذا فليكن تدوين الخطايا

بدل أعين زملائنا النسّاك ، حتى لا نتذكر الشرور ، لأننا نخجل من كتابتها ومن أن يراها الآخرون . إذا ما روّضنا أنفسنا على هذا الأسلوب فنقدر أن نخضع الجسد للرب وأن ندوس حيل العدو .

٥٦ ـ هذا ما حثّ أنطونيوس زائريه عليه ، مشاركاً إياهم في آلامهم ومصلّياً معهم . وكان الرب يستجيب لهم من أجله . لكنه لم يفتخر إذا استجاب الرب لطلبته ، ولم يتذمر إذا لم يستجب له ، بل كان يشكر الرب دائماً ويحثّ المتألمين على الصبر وعلى الإدراك بأن شفاءهم لا يعتمد عليه ، بل على الرب الذي يشفي من يريد وعندما يريد . فكان المتألمون يقبلون كلمات الشيخ كشفاء لهم ، وتعلّموا ألاّ يفقدوا صبرهم و ان تطول أناتهم. والذين نالوا الشفاء تعلّموا ألاّ يشكروا أنطونيوس ، بل الرب وحده.

٥٧ ـ كان هناك رجل يدعى فرنتون من عائلة ملكية أصيب بمرض شديد . فكان يبلع لسانه ويكاد أن يؤذي عينيه . صعد هذا الرجل إلى الجبل وترجّى أنطونيوس أن يصلّي من أجله، فصلّى له وقال: انصرف فتُشفى. لكن بما أنه أصرّ على البقاء هناك بضعة أيام قال له أنطونيوس : انك لن تشفى إذا بقيت هنا . فاذهب وعندما تصل مصر سترى

الآية التي ستحصل لك. فآمن ذلك الرجل و انصرف. ولما رأى مصر توقف للحين مرضه وعاد صحيحاً ، كما قال له أنطونيوس الذي عرف هذا من المخلص عندما صلّى .

٥٨ ـ وكانت عذراء من فوسيرس التي في طرابلس قد مرضت مرضاً شديداً وقبيحاً . فكانت دموعها ومخاطها وسائل أذنيها تسقط على الأرض ، فتتحوّل فوراً إلى دود . وجسدها كان مشلولا وعيناها غير طبيعيتين . عندما سمع أهلها أن بعض الرهبان سيتوجّهون لزيارة أنطونيوس طلبوا منهم أن يرافقوهم مع ابنتهم ، لأنهم آمنوا بالرب الذي شفى نازفة الدم. ولما سمحوا لهم، مكث الوالدان مع ابنتهما خارج الجبل قرب بفنوتيوس الراهب والمعترف . أما الرهبان فدخلوا منسكه ، ولما أرادوا أن يخبروه عن العذراء استعجلهم وقصّ عليهم خبر مرضها وكيف أنها سافرت معهم . ولما طلبوا منه أن يأذن لأولئك بالدخول لم يسمح لهم وقال : اذهبوا فتجدوا العذراء معافاة إذا لم تكن قد ماتت . فما هذا العمل عملي، كي تأتي إلى إنسان يستحق الشفقة . فالشفاء عمل المخلص الذي يفعل رحمة في كل مكان لمن يطلب منه . فالرب استجاب لها عندما صلّت ، لكنه أعلن لي بمحبته للبشر أن ألم الفتاة سيشفى . ان هذه العجيبة حدثت حقاً ، لأنهم عندما خرجوا من هناك

وجدوا الأهل فرحين و الفتاة معافاة.

٥٩ - فيما كان اثنان من الإخوة ذاهبين إلى الدير ، نفد ماؤهما في الطريق . فمات أحدهما وصار الثاني على وشك الموت ، فاستلقى على الأرض ينتظر موته ، لأنه لم يعد قادراً على إتمام سيره . في ذلك الوقت دعا أنطونيوس وهو في الجبل راهبين وقال لهما : خذا جرة ماء واحملاها بسرعة إلى الطريق المؤدي إلى مصر ، لأن أحد القادمين إلى هنا ينتظر الموت إذا لم تسرعوا ، والثاني مات . هذا ما أعلنه الله لي وأنا أصلّي . ولما وصل الراهبان إلى هناك سقيا الذي كان على قيد الحياة ماء وحملاه إلى الشيخ ، ودفنا الذي مات . أمّا المسافة فكانت على بعد يوم واحد . لكن إذا سأل أحد : لماذا لم يتكلم أنطونيوس قبل موت الآخر؟ فهو تساؤل غير صحيح ، لأن حكم الموت لم يكن في يده ، بل في يد الله الذي حكم على الأول بالموت و أعلن عن الثاني. أمّا معجزة أنطونيوس فهي انه وهو مقيم في الجبل كان يقظ القلب ، وكان الله يظهر له ما يحدث بعيداً عنه.

٦٠ - فيما كان جالساً على الجبل مرة ثانية رفع عينيه ألى السماء فرأى شخصاً في الفضاء مرتفعاً إلى فوق ، ورأى الذين كانوا يصادفونه فرحين جداً . وفيما كان أنطونيوس

يتعجّب ويطوّب هذا المصفّ صلّى كي يعرف من هو . فأتاه صوت يقول هذه هي نفس آمون راهب نطرية ، الذي بقي حتى الشيخوخة ناسكاً . والمسافة بين نطرية وبين الجبل الذي كان يقيم فيه أنطونيوس تبلغ ثلاثة عشر يوماً . رأى الاخوة في الجبل الشيخ متعجباً فطلبوا منه معرفة الأمر ، فسمعوا أن آمون مات منذ برهة . وآمون هذا كان معروفاً عند الاخوة ، لأنه كان يزورهم كثيراً . وجرت على يده آيات كثيرة ، وإحدى هذه الآيات هي أنه احتاج مرة أن يعبر نهر ليكوس (وكان يفيض بقوة) ، فطلب من مرافقه ثيوذورس أن يبتعد ، لكي لا يرى الواحد الآخر عارياً عندما ينزل في الماء . عندما ابتعد ثيوذورس خجل أن يرى نفسه عارياً . وفيما هو يفكر في الأمر نُقل إلى الضفة الثانية . ولما عاد ثيوذورس الذي كان تقياً ورأى أنه عبر النهر بسرعة دون أن يبتل طلب منه معرفة كيفية عبوره . ولما رأى انه لا يريد إبلاغه أمسك بقدميه و أصر على عدم تركه ما لم يعلن له السر . وحينما رأى هذا الإلحاح طلب منه ألاّ يبلغ أحداً حتى مماته، و أبلغه انه حُمل ونُقل إلى الضفة الثانية دون أن يمشي على المياه . هذا الأمر يستحيل على البشر ، لكنه لا يستحيل على الرب وعلى الذين سمح لهم بهذا مثل الرسول بطرس العظيم (أنظر متى ١٤ : ٢٨ - ٢٩) . هذا ما أخبر

به ثيوذورس بعد موت آمون . وبعد مرور ثلاثين يوماً أتى بعض الإخوة من نطرية ، فسألهم الرهبان عن اليوم والساعة التي رقد فيها آمون . فكان اليوم ذاته الذي أخبرهم فيه أنطونيوس . فتعجبوا من طهارة نفس أنطونيوس الذي أخبر عن الحدث على بعد ثلاثة عشر يوماً ، ورأى نفسه ترتفع .

٦١ - وحينما التقى أرخلاوس الكونت بأنطونيوس في الجبل الخارجي طلب منه أن يصلّي من أجل بوليكترا العذراء العظيمة الحاملة المسيح والتي تعيش في اللاذقية ، لأنها كانت تتألم كثيراً من معدتها وجنبها بسبب النسك الشديد ، حتى أنها أصبحت عليلة الجسد كلّه. فصلّى أنطونيوس من أجلها ، أمّا الكونت فسجّل يوم الصلاة . ولما عاد الكونت إلى اللاذقية وجد البتول معافاة . فسألها متى توقف مرضها فقالت له . حينذاك أخرج الورقة التي كتب عليها اليوم الذي رفع أنطونيوس الصلاة من أجلها و أراها للجميع فتعجبوا ، و أيقنوا ان الرب شفاها من آلامها في الوقت الذي صلّى فيه أنطونيوس و توسّل إلى صلاح المخلص من أجلها .

٦٢ - كان أنطونيوس ينبىء عن قدوم الزائرين قبل أيام وأحياناً قبل شهر وعن سبب مجيئهم . فالبعض كانوا يأتون ليروه فقط ، والبعض الآخر لمرض أو لأنهم يتألمون من

الشياطين . لكنّ الجميع لم يحسبوا مسافة الطريق إرهاقاً لهم وخسارة ، لأن من رجع شعر بالفائدة . رغم قوله هذه الأشياء ورؤيته لها كان يرجوهم ألاّ يعجبوا به ، بل بالرب الذي يعطي قوة المعرفة وفقاً لمقدرتنا نحن البشر .

٦٣ ـ لما نزل أنطونيوس إلى الأديار الخارجية مرة ثانية طلب منه الرهبان الصعود إلى السفينة للصلاة معهم ، فاشتمّ رائحة نتنة جداً . لكنّ ركاب السفينة أكّدوا له أن الرائحة تنبعث من السمك المملّح ، أما هو فقال ان الرائحة مختلفة . وفيما هو يتكلم بهذا صرخ شاب به أرواح نجسة كان قد دخل السفينة و اختبأ فيها . عنّف أنطونيوس الشيطان باسم ربنا يسوع المسيح ، فخرج منه وعاد الرجل صحيحاً . عند ذلك أدرك الجميع أن هذه الرائحة من الشيطان .

٦٤ ـ كان هناك رجل من مشاهير الرجال قد دخل به شيطان مرعب جداً، حتى أن الرجل لم يعرف انه ذاهب إلى أنطونيوس . وكان يأكل براز جسده . عندما أتى به الذين أحضروه إلى أنطونيوس طلبوا منه أن يصلّي من أجله ، فسهر أنطونيوس معه طوال الليل ، لأنه أشفق عليه . لكنّ الشاب هجم فجأة في الصباح على أنطونيوس ودفعه داسراً إياه ، فاغتاظ مرافقو الشاب. فقال لهم أنطونيوس : لا تغضبوا

الشاب ، لأنه لا يدسرني هو ، بل الشيطان الذي فيه ، لأنني عنّفته و أمرته بأن يخرج إلى مكان مجدب ، ففعل هذا بعد أن جنّ جنونه . فمجِّدوا الرب لأن الشيطان دسره نحوي . هذا دليل على أنه خرج منه . حين قال هذا عاد الشاب صحيحاً واستعاد رشده وعرف المكان الذي هو فيه. وقبّل الشيخ وشكر الرب .

خلقه وتصرفاته

٦٥ ـ وعجائب كثيرة صنعها أنطونيوس أوردها الرهبان باتفاق في الرأي والشكل ، لكنها لا تدعو للعجب بقدر الأمور الأخرى الكثيرة . مرة أراد أن يأكل ، فنهض للصلاة في الساعة التاسعة (الثالثة بعد الظهر) ، فشعر بأنه يُخطف عقلياً . والغريب في الأمر أنه كان ينظر إلى نفسه وكأنه واقف خارجها ، وكان يحس بأن هناك من يقوده في الفضاء . لكنّ جماعة من الأشرار وقفت في الفضاء و أرادت أن تعترض طريقه. غير أن الذين كانوا يسيّرونه في الفضاء حاربوهم ، فطلب الأشرار أن يعرفوا ما إذا كان مسؤولا أمامهم أم لا . ولما أرادوا محاسبته على أعماله من يوم ولادته لم يسمحوا لهم قائلين : كل شرّ فعله من يوم ولادته محاه الرب . فليسمح لكم التحدث عما فعله من اليوم الذي صار فيه ناسكاً

وأعطى وعداً للرب . وبما أنهم وجّهوا الاتهام دون إثبات ، صارت طريقه خالية من العوائق . حينذاك عاد إلى نفسه ورأى أنه واقف أمام ذاته وأنه هو أنطونيوس . فنسي الأكل كلياً ، وبقي ليل نهار يئن ويصلّي . لقد اندهش عندما عرف كم من الأعداء يجب أن نحارب ، وبأية أتعاب سيعبر المرء الفضاء . هذا ما عناه بولس في قوله « حسب رئيس سلطان الفضاء » (أفسس ٢ : ٢) . فهذا السلطان يملكه الشيطان محاولا أن يعيق الذين يعبرون الفضاء . لذلك كان يسدي النصيحة ويقول: «احملوا سلاح الله الكامل لتقدروا أن تقاوموا في يوم الشر » (أفسس ٦ : ١٣) ، وحتى لا يستطيع العدو « أن يقول فينا سوءاً» (تيطس ٢ : ٨) فيخزى . ونحن الذين تعلّمنا هذا الأمر لنتذكر الرسول الذي يقول: «أبالجسد؟ لا أعلم أم بغير الجسد ؟ لا أعلم ، الله يعلم » (٢ كورنثوس ١٢: ٢) . اختطف بولس إلى السماء الثالثة وسمع كلمات لا يُنطق بها ثم نزل ، أما أنطونيوس فشاهد وصوله إلى الفضاء ، وجاهد حتى ظهرت له الطريق حرة .

٦٦ ـ كانت عنده هذه الموهبة أيضاً ، فبالرغم من كونه وحيداً في الجبل ، فإن العناية الإلهية كانت تعلن له في الصلاة الأمور التي يتساءل عنها ويطلب معرفتها . فأصبح

الإنسان المطوّب الذي يعلّمه الله كما هو مكتوب (أنظر يوحنا ٦ : ٤٥) . وبما أنه تحدث مع بعض زائريه عن مسرى النفس والمكان الذي ستكون فيه بعد هذه الحياة ، فقد دعاه صوت من العلى في الليلة التالية وقال له : قم يا أنطونيوس و اخرج لتنظر، فخرج (لأنه كان يعرف لمن يقدم الطاعة) وحينما رفع ناظريه شاهد شخصاً طويل القامة مرعباً وشائناً ، يكاد أن يصل رأسه إلى الغيوم . وشاهد كائنات تصعد عليه وكأنها مجنّحة ، في حين أنه كان باسطاً يديه . وكان يمنع البعض من الصعود ، والبعض الآخر كان يتجاوزه صاعداً إلى السماوات من دون انزعاج . وكان ذلك الطويل القامة يصرف بأسنانه على الذين سقطوا في يديه فرحاً . فصار صوت إلى أنصونيوس يقول : افهم ما تنظر . فاستنار للحين فكره وأدرك أن هذا عبور أرواح شريرة، و ان ذلك الطويل القامة هو العدو الذي يحسد المؤمنين ، والذي أصبح مسؤولا عن الذين منعهم من الصعود . لكنه لم يقدر أن يلقي القبض على الذين تجاوزوه ، لأنهم لم يثقوا به . ولما شاهد هذه الرؤية حسبها مذكّراً له ليجاهد أكثر فأكثر من أجل التقدم الروحي . ان أنطونيوس لم يخبر بهذه الأمور ، لكنه كان يتعجب أثناء لجوئه الطويل الى الصلاة ، فيسأله الإخوة ويضيّقون عليه ، فيُضطر الى الكلام ، كالأب الذي

لا يستطيع ان يخفي شيئاً عن أولاده . لكنه كان يدرك ان ضميره نقي وأن هذا السرد مفيد لهم . فيتعلمون ان هذا هو الثمر الصالح للنسك ، وان المشاهدة عزاء في تعب النسك .

٦٧ ـ كان أنطونيوس ذا خلق حميد ونفس متواضعة ، ورغم عظمته كان يحترم قوانين الكنيسة جداً ويجلّ الإكليروس ، فلم يكن يخجل من إحناء رأسه للأساقفة والكهنة . وعندما كان يزوره شماس للمنفعة الروحية ، كان يتباحث معه فيما ينفع ويعطيه فرصة الصلاة . ولم يكن يخجل من أن يتعلم منه . كان يطرح باستمرار الأسئلة ويرجو ان يسمع آراء الاخوة ، وكان يعترف بالفائدة التي يحصل عليها عندما كان يقول شيئاً نافعاً . كان وجهه ذا نعمة كبيرة وعجيبة . وكان يحلّى بهذه الموهبة التي أعطاها إياه المخلص . فإذا ما اتفق ان وجد وسط جمهرة من الرهبان، و أراد أحدهم التعرف إليه فكان يدنو على الفور منه ، ويوجّه كلامه إليه وكأن منظره قد جذبه إليه . لم يكن مختلفاً عن باقي الرهبان في طول قامته وعرضها ، بل في خُلُقه وطهارة نفسه ، إذ كان ذا نفس هادئة وحواس غير مضطربة ووجه وضّاء بسبب فرح نفسه ، حتى ان كل حركات جسده كانت تعكس حالته النفسية وفقاً لما كُتب: « القلب الفرح

يجعل الوجه طلقاً وبحزنه يجعله عابساً » (أمثال ١٥ : ١٣) . هكذا عرف يعقوب أن لافان يفكر في الشر فقال لنسائه : «ان وجه أبينا ليس هو كما كان أمس و أول أمس » (تكوين ٣١ : ٥) . هكذا عرف صموئيل داود ، لأنه كان فرح العينين و أبيض الأسنان كالحليب (صموئيل ١٦ : ١٢). هكذا عُرِف أنطونيوس كشخص هادىء النفس دائماً لا يعرف الإضطراب. فلم يكن عابساً أبداً، بل فرح الذهن.

دحض الآريوسيين

٦٨ ـ كان في الأمور الإيمانية ذا ورع يستحق التعجب ، إذ لم يشارك المليتانيين [١] المنشقين ، لأنه عرف منذ البدء خبثهم و ارتدادهم. ولم يحدّث المانويين[٢] والهراطقة الآخرين، إلاّ إذا أراد أن يقدِّم لهم النصح ليعودوا إلى الايمان . فكان يعتقد ويعلِّم أن مصادقتهم والتحدث إليهم دمار للنفس . هكذا ازدرى بهرطقة الآريوسيين و أوصى الجميع ألاّ يقتربوا منهم ، وألاّ يؤمنوا بمعتقدهم الوخيم . عندما أتى بعض الآريوسيين لزيارته ، امتحنهم فأدرك

١ ـ اتباع مليتيوس أسقف ليكوبولس في مصر ، الذي رسم أشخاصاً من خارج أبرشيته فسبّب شقاقاً طويلا .
٢ ـ اتباع ماني الذي تبنى إيمان الفرس بالثنائية ، أي بإلهيْ الخير والشر.

كفرهم . لذلك طردهم من الجبل وقال لهم أن كلامهم أخطر من سمّ الأفاعي .

٦٩ ـ لما زعم الآريوسيون زعماً كاذباً ان أنطونيوس يؤمن إيماناً كاذباً حنق وغضب عليهم . ثم نزل من الجبل برجاء من الأساقفة وجميع الاخوة . وحينما دخل الاسكندرية شجب الآريوسيين وقال ان هذه الهرطقة آخر الهرطقات وسابقة للمسيح الدّجال . وكان يعلّم الشعب ان ابن الله ليس مخلوقاً ، ولم يخلق من العدم ، بل هو الكلمة الأزلية لجوهر الله وحكمته . ومن الكفر القول إنه كان وقت لم يكن فيه الإبن موجوداً ، لأن الإبن موجود مع الآب منذ الأزل . لذلك لا تشاركوا الآريوسيين الكفرة ، «أي علاقة للنور بالظلام؟» (٢ كورنثوس ٦ : ١٤) . أنتم مسيحيون أتقياء ، أمّا هم فلا يختلفون عن الوثنيين بشيء ، ما داموا يحسبون ابن الله الآب وكلمته مخلوقاً . انهم يعبدون المخلوق من دون الخالق (أنظر رومية ١ : ٢٥) . ثقوا بأن هذه الخليقة تحنق عليهم ، لأنهم وضعوا الخالق ربّ الجميع بين المخلوقات وهو الذي خلق كل شيء .

٧٠ ـ فرح جمهور الشعب عندما سمع أن رجلا كهذا أبسل تلك الهرطقة التي تحارب المسيح . وأخذ سكان المدينة

يتراكضون لرؤيته ، بل أن الهلينيين أتوا مع الذين يدعون كهنتهم وقالوا : نرجو رؤية رجل الله (هكذا كان يدعوه الجميع) . هناك أخرج الرب على يديه شياطين كثيرة وشفى ممسوسين كثيرين . وطلب عدد كبير من الهلينيين بإلحاح لمس الشيخ ، لأنهم آمنوا بأنهم سيحصلون على فائدة منه . ومما لا شك فيه انه اعتنق المسيحية في تلك الأيام القليلة عدد يساوي العدد الذي يعتنقها خلال سنة واحدة . لكنّ البعض اعتقد بأن أنطونيوس ينزعج من الجمع ، لذلك حاول إبعادهم عنه . أما ذاك فقال من غير انزعاج : ان الجموع ليست أكثر عدداً من الشياطين التي نتصارع معها في الجبل .

٧١ ـ ولما ترك المدينة واكبناه في خروجه ، وحينما وصل باب المدينة نادته من الخلف إمرأة وقالت : انتظر يا رجل الله ، فإن ابنتي تتعذب جداً من الشيطان . أرجو منك البقاء فلعلّ شيئاً يصيبني وأنا أركض . حينما سمع الشيخ هذا الكلام رجونا نحن منه فبقي طوعاً. ولما اقتربت المرأة سقطت الإبنة على الأرض ، فصلّى أنطونيوس ودعا اسم المسيح ، فعادت الإبنة صحيحة وخرج منها الروح النجس . فمجّدت الأم الله وشكره الجميع . أما هو ففرح بعودته إلى الجبل وكأنه رجع إلى بيته .

حواره مع الفلاسفة

٧٢ ـ كان أنطونيوس رجلا حكيماً وحصيفاً جداً، وما يثير الإعجاب انه كان ذكياً وحكيماً، على الرغم من أنه لم يتعلم القراءة والكتابة. أتى إليه مرة فيلسوفان هلينيان ليجرّباه وكان هو آنذاك في الجبل الخارجي. فعرفهما من وجهيهما ودنا منهما وقال لهما بواسطة مترجم: لماذا أجهدتما نفسيكما أيها الفيلسوفان للقاء رجل أحمق. ولما قالا له انه ليس أحمق، بل حصيف أجابهما: إذا ابتغيتما رجلا أحمق فباطلا تعبتما. لكن إذا كنتما تحسباني فطناً فكونا مثلي، لأن المرء يجب أن يحاكي الخير. فلو ذهبت أنا إليكما لاقتديت بكما، لكن بما انكما أتيتما إليّ فكونا مثلي، لأني مسيحي. فتعجّب الرجلان منه وتركا المكان، لأنهما شاهدا أن الشياطين تخافه أيضاً.

٧٣ ـ عندما التقى به بعض الفلاسفة في الجبل الخارجي ظنوا أنهم يستطيعون أن يسخروا منه، لأنه لم يتلق العلم فقال لهم: هل العقل سبب العلم [١]، أم العلم سبب العقل؟ عندما أجابوه أن العقل هو الأول وهو مستنبط العلم قال أنطونيوس: ذو العقل الصحيح لا يحتاج إلى العلم.

١ ـ فضّلت استعمال لفظة العلم بدل الحرف كما هو في النص، لأنّ المقصود هنا هو العلم الذي يأتي من تعلّم الحرف (المترجم).

فانـدهش الفلاسفـة وجميع الحـاضرين من هذا الـكلام ، وذهبوا متعجبين ، لأنهم رأوا حكمة كبيرة في رجل مثله . لم يكن أنطونيوس ذا خلق فظ بسبب عيشـه في الجبـل حتـى الشيخوخـة ، بل كان فرحـاً واجتماعياً ، وكانـت كلماتـه مُصْلَحة بالملح الإلهي (أنظر كولوسي ٤ : ٦)حتى أنـه لم يكن من يحسده النعمة التي يملكها ، بل كان جميع القادمين إليه يسرّون به .

٧٤ ـ بعد ذلك أتى لزيارته بعض الفلاسفـة الآخـرين الذين يحسبهم اليونانيون حكماء وطلبوا منه كلمة في الإيمان بالمسيح . ولما حاولوا استعمال القياس المنطقـي على بشـارة الصليب الإلهي ، وذلك بهدف السخرية ، بقي صامتاً لفترة وجيزة ، لأنه أشفق في البدء على جهلهم . ثم قال بواسطة مترجم نقل كلامه بدقة : أيهما أفضل ، الإعتراف بالصليب أم نسب دعارة وفسق بالغلمان الى تلك التي تسمّى آلهتكم ؟ ما نؤمن به دليل شجاعة و ازدراء بالموت، أمّا ما تؤمنون به فهو أهواء دنيئة . فأيهما أفضل أن نقول إن كلمة الرب بقي من غير تغيّر ، بعد أن اتخذ جسداً بشرياً لكي يجعـل البشر مشاركي الطبيعة الإلهية والعقلية ، أو تشبيه الإله بالكائنات التي لا عقل لها ، فنكون بذلك قد قدّمنا العبادة الى ذوات الأربـع والزحافـات وأصنـام البشر ؟ فأنتـم أيهـا الحـكماء

تحترمون هذه الأمور ، فكيف تجرؤون على السخرية منّا نحن الذين نقول إن المسيح ظهر كإنسان ، في الوقت الذي تفصلون فيه النفس عن السماء ، وتزعمون انها ضلّت وسقطت من قوس السماء على جسم الإنسان . ويا ليتكم تؤمنون بأنها تنتقل وتنحدر إلى الجسم الإنساني من دون انحدارها إلى الزحافات وذوات الأربع . ان إيماننا يعلّم بأن المسيح أتى كإنسان لخلاص البشر ،أمّا أنتم فتضلّون عندما تتكلمون على نفس غير مخلوقة . وفي حين أننا ندرك قوة العناية الإلهية ومحبتها للبشر ، وندرك أن هذا غير مستحيل عند الله ، فأنتم تزعمون أن النفس صورة العقل وتنسبونها الى الجثث وتهذرون بقولكم انها متحركة . لذلك تظهرون العقل متحركاً بسبب تحرك النفس . عندما تؤمنون بهذه الأمور التي تخص العقل تذكّروا بأنكم تجدّفون على العقل نفسه .

٧٥ ـ ماذا تقولون عن الصليب ، ما الأفضل تحمّل الصليب ضد مؤامرات الأشرار وعدم الخوف من الموت المقبل ، أم سرد خرافات عن ضلالات أوسيريدس و ايسيدس وعن موآمرات تيفونوس وهرب يرونس وأكل الأولاد وقتل الآباء ، لأن هذه هي حكمتكم . انكم

تسخرون بالصليب فلماذا لا تعجبون بالقيامة ؟ فالذين تحدّثوا عن الصليب كتبوا عنْ القيامة . لماذا تذكرون الصليب وتسكتون عن الأموات الذين قاموا من بين الأموات وعن العميان الذين أبصروا والمفلوجين الذين شفوا والبرص الذين تطهّروا والسير على مياه البحر ، وكل العجائب والآيات الأخرى التي تشير إلى المسيح إلهاً وليس إنساناً . كم تظهرون لي أنكم ظلمتم أنفسكم ، لأنكم لم تبحثوا في الكتاب المقدس . ادرسوا الكتاب وانتبهوا إلى أن ما فعله السيد يظهره إلهاً أتى لخلاص البشر.

٧٦ ـ انكم أوردتم لنا اعتقاداتكم . فماذا تقدرون أن تقولوا عن البهائم سوى أنها وحشية ولا تعقل . لكن إذا أردتم أن تقولوا مثلما اسمع بأن هذه الأمور هي كخرافات تحمل معنىً مجازياً ، أي خطف صبية برسيوني يرمز إلى الأرض وعرج ايفستوس إلى النار والايرا إلى الفضاء وآبولون إلى الشمس وارتميس إلى القمر وبوسيذنا إلى البحر . انكم بهذه الأمور لا تعبدون الله نفسه ، بل المخلوق من دون الخالق . وإذا ما قلتم انكم الّفتم هذه الأساطير ، لأن الخليقة جميلة ، فمن الواجب ان تقفوا عند حدّ الإعجاب بالمخلوقات و ان لا تؤلهوها ، وأن لا تعطوا الإكرام اللائق بالخالق إلى المخلوق . وإلاّ لكان من الواجب أن

نعطي الإكرام اللائق بالمهندس الى البيت الذي بناه ، والإكرام اللائق بالقائد إلى الجندي . فماذا تقولون عن هذه الأمور ، لكي نعرف إذا كان في الصليب ما يستحق السخرية؟

٧٧ ـ فصاروا في حيرة وأخذوا يلتفتون إلى هنا وهناك . لكنّ أنطونيوس ابتسم وقال ثانية بواسطة مترجم : هذه الأمور تبدو لي كاذبة من النظرة الأولى . لكن طالما انكم تعطون وزناً للكلام البرهاني ، وتتقنون هذا الفن ، وتريدوننا أن نعبد الله ببرهان منطقي فقولوا لنا كيف نتحقق من الأمر وخاصة من معرفة الله ؟ وما هو الأسبق البرهان المنطقي أم الايمان الحي ؟ عندما أجابوا بأن الإيمان الحي هو الأسبق ، وأنه هو المعرفة الحقيقية قال لهم : حسناً قلتم ، لأن الإيمان يستند إلى ميل النفس ، أما الجدلية فتؤلف فناً من فنون الكلام . إذن ، لا تكون البراهين المنطقية مهمة عند الذين يملكون الإيمان الحي ، بل تكون نافلة . فما ندركه نحن بالايمان تحاولون أنتم فهمه بالكلام . لذلك لا تقدرون في كثير من الأحيان ان تعبّروا عما نستطيع إدراكه . إذن ، الإيمان الحي أفضل وأضمن من مقاييسكم السفسطائية .

٧٨ ـ اننا لا نملك سرّ الحياة المسيحية في حكمة كلام

الهلينيين (أنظر ١ كور ١ : ١٧) ، بل في قوة الإيمان الذي منحنا إياها الله بيسوع . والدلالة على صحة كلامنا أننا نؤمن بالله ونميّز بواسطة مخلوقاته عنايته في كل الأمور مع أننا لم نتلق العلم. والدلالة على فاعلية إيماننا اننا نستند إلى الإيمان بالمسيح ، بينما تعولون أنتم على مماحكات سفسطائية . ان صور أوثانكم تضمحل ، أمّا إيماننا فينتشر في كل مكان . أنتم لا تستطيعون عن طريق قياسكم المنطقي وسفسطكم أن تربحوا مسيحياً واحداً بإقناعكم إياه . أمّا نحن فإذ نعلّم الايمان بالمسيح نعرّي الإيمان بالخرافات، لأن الجميع يعترفون بأن المسيح هو الله و ابن لله . أنتم لا تعيقون بكلامكم الجميل تعليم المسيح ، أمّا نحن فبذكرنا المسيح المصلوب نطرد الشياطين التي تحترمونها أنتم كآلهة . فحيث توجد إشارة الصليب يضعف السحر ولا تفعل العِرافة .

٧٩ - قولوا لي أين سحركم الآن ؟ وأين هم سحرة مصر ؟ أين هي أوهام السحرة ؟ متى ضعفت هذه وبطلت ؟ أليس عند ارتفاع صليب المسيح ؟ فأمّا أن يكون الصليب مستحقاً الهزء أو أن تكون الأمور التي أبطلها بلا قوة ؟ ومما يدعو للعجب ان عبادتكم للوثن لم تُضطهد بعد ، لأن الجميع يكرمونها في كل مدينة . أمّا المسيحيون فيُضطهدون

دائماً ، ومع ذلك فإن إيماننا يزدهر ويزداد أكثر من إيمانكم . وعلى الرغم من أن إيمانكم يتلقى دعماً ويتخذ صفة رسمية فإننا نراه يضعف ، في حين ان الايمان بالمسيح وتعليمه ملأ المسكونة ، رغم هزئكم بهما ورغم اضطهاد الملوك لهما . متى أصبحت معرفة الله لامعة هكذا ؟ متى ظهرت العفة وفضيلة البتولية على هذا النحو ؟ ومتى احتُقر الموت الى هذا الحد ، إلاّ عندما رُفع الصليب ؟ لا يقدر احد أن يشك في هذا ، لأنه يرى بعينيه الشهداء وهم يحتقرون الموت من أجل المسيح ، والعذارى وهنّ يحفظن أجسادهن بعفة وطهارة.

٨٠ ـ هذه الإشارات كافية للدلالة على أن الإيمان بالمسيح هو وحده الأمر الحقيقي لاتقاء الله . أنتم لا تؤمنون بالله ، لأنكم تطلبون مقاييس منطقية . نحن لا نعتمد على أساليب الحكمة الهلينية في الإقناع ، كما قال معلّمنا بولس (١ كور ٢ : ٤) ، بل نقنع بالإيمان الذي يسبق الصناعة المنطقية . وكان هناك في ذلك المكان مرضى يعانون من الشياطين ، فأتى بهم إلى الوسط و قال : ابرئوا هؤلاء بقياسكم المنطقي أو بأي فن آخر أو بالسحر ، و ادعوا أصنامكم . وإذا كنتم لا تقدرون ان تخرجوا الشياطين فأوقفوا حربكم ضدنا لتروا قوة صليب المسيح . ولما قال هذا دعا المسيح و رسم إشارة

الصليب مثنى وثلاث على المرضى ، فنهضوا للحين كاملي العقل ومسبحي الرب . فتعجب أولئك المدعوون فلاسفة و اندهشوا جداً من حكمة الرجل لهذه الآية التي حصلت على يده . قال لهم أنطونيوس لِم تتعجبون من هذا ؟ نحن لا نفعل هذه الأمور بقوتنا ، بل ان المسيح يفعلها بواسطة المؤمنين به . آمنوا لتروا أن ما نؤمن به ليس فناً من فنون الكلام ، بل الإيمان العامل بالمحبة في المسيح (غلاطية ٥ : ٦) . إذا اقتنيتم الإيمان لن تطلبوا فيما بعد براهين منطقية ، بل ستدركون انه أمر كاف . هذه هي أقوال أنطونيوس ، أمّا هم فتعجبوا من هذا و انصرفوا مقبّلين إياه ومعترفين بالفائدة التي نالوها منه .

نصائحه إلى الملك قسطنطين وأولاده

٨١ ـ ان شهرة انطونيوس وصلت إلى الملوك . فحينما سمع عنه الإمبراطور قسطنطين وولداه الإمبراطوران قسطنديس كونستنس كتبوا إليه كما إلى أب و رجوا منه أن يتلقوا أجوبة على رسائلهم . لكنه لم يحسب لها كبير حساب ، ولم يسرّ بها ، بل بقي كما كان قبل ان يكتب إليه الأباطرة . ولما حملوا إليه رسالة دعا الرهبان وقال لهم : لا تتعجبوا من أن الملك كتب لي ، بل تعجبوا من ان الله كتب

الشريعة الى الناس وكلّمنا بابنه (عبرانيين ١ : ٢) . هولم يشأ في البدء ان يقبل الرسائل ، إذ قال انه لا يعرف أن يجيب عليها. لكن بما ان الرهبان رجوا منه قائلين ان الملوك أناس مسيحيون لذلك أجبهم لئلا يعثروا من جراء الرفض ، فقبل أن يقرأها ، ثم أجابهم مستحسناً عبادتهم للمسيح وناصحاً إياهم بالأمور الخلاصية وعدم النظر الى الأمور الحاضرة ، بل أن يتذكروا اكثر الدينونة الآتية، و ان يعرفوا ان المسيح هو الملك الحقيقي والأبدي : وحثّهم على العطف وحماية البار والفقير . أمّا هؤلاء ففرحوا بجوابه . هكذا كان الجميع يحبون أنطونيوس ويدعونه إلى أن يكون لهم أباً.

إعلان الله له عن خطر الآريوسيين على الكنيسة

٨٢ ـ هكذا عرفه الناس ، وهكذا أحب هو الذين يجتمعون به . وقد رجع بعد ذلك الى الجبل الداخلي ليمارس نسكه المعتاد . وكثيراً ما كان يبقى صامتاً عندما يجلس مع الزائرين او يتمشى معهم ، كما كُتب في دانيال (أنظر دانيال ٤ : ١٦) . لكن بعد برهة كان يحدّث الإخوة الذين معه عن الأمور الآتية . فكان مجالسوه يدركون انه يشاهد رؤية . فقد كان يرى ما يحدث في مصر وهو في الجبل ،

وكان يقصّ للأسقف سيرابيون [1] ما يشاهده في الرؤية ، عندما كان الأسقف يرى انشغال أنطونيوس بها . ذات مرة وفيما هو يقوم بالعمل اليدوي أصبح وكأنه في حالة انجذاب روحيّ (وجد) ، وأخذ يتنهد بأنين . بعد وقت رجع إلى الذين كانوا بقربه وأخذ يئن ، ثمّ رفع الصلاة وهو يرتجف ، فبقي وقتاً طويلا يصلّي راكعاً ، وعندما نهض أخذ بالبكاء . فخاف الذين حوله خوفاً شديداً ورجوا منه أن يعرفوا الأمر . ولما ضايقوه من كثرة إلحاحهم ، تنهد بأنين وقال : يا بنيّ خير لي أن أموت قبل أن يحدث ما شاهدته في الرؤية . ولما طلبوا منه ثانية قال وعيناه تدمعان : أوشك أن يحلّ على الكنيسة غضب كبير وأن تسلّم الكنيسة إلى أناس يشبهون الوحوش غير الناطقة . فأني رأيت المائدة المقدسة يحيط بها من جميع جوانبها أبغال ترفس ما عليها ، مثل رفس الوحوش عندما تقفز من غير انتظام . انتم سمعتم أنيني ، لأنني سمعت صوتاً يقول : سيكون مذبحي رذالة . هذا ما شاهده الشيخ . وبعد سنتين من قوله وقعت ثورة الآريوسيين الحالية ، فاقتحموا الكنائس وسرقوا الآنية وحملوها إلى الوثنيين . فهم ألزموا الوثنيين أن يتركوا أماكن عملهم

---

١ ـ صديق أنطونيوس وأسقف تمويس وهو الذي وجّه اليه القديس اثناسيوس أربع رسائل في الروح القدس .

ويجتمعوا بهم . ثمّ فعلوا بالمائدة المقدسة ما أرادوا . عند ذلك أدرك الجميع أن رفسات البغال أنبأت أنطونيوس بما يفعله بحماقة الآريوسيون بحضور أولئك . عندما شاهد أنطونيوس هذه الرؤية دعا من حوله وقال لهم : لا تتوانوا يا أولادي ، فكما غضب الرب هكذا سيقدم الشفاء ، فتكتسب الكنيسة جمالها بسرعة وتتلألأ كعادتها . وسترون المضطهَدين وهم يتراجعون ، وسيعود الكفر الى أعشاشه ، وسيُجاهر بالإيمان الحقيقي في كل مكان بشجاعة وحرية . احترزوا من أن تدنسوا أنفسكم مع الآريوسيين . فما تعليمهم تعليم الرسل ، بل تعليم الشياطين، وأبيهم إبليس ، أو قل إنه تعليم عاقر وجاهل ، لا نتيجة عقل صحيح ، تماماً مثل بهيمية الأبغال.

عجائبه الجديدة ، وصاياه وانتقاله

٨٣ ـ هذه هي الأمور المتعلقة بأنطونيوس ولا ينبغي أن نشك في اجتراح انسان واحد لعجائب كهذه . فهذا هو وعد الرب القائل : «لو كان لكم إيمان بمقدار حبة خردل لقلتم لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ولما عجزتم عن شيء » (متى ١٧ : ٢٠) وأيضاً: «الحق الحق أقول لكم ان سألتم الآب شيئاً باسمي أعطاكم إياه، اطلبوا تنالوا» (يوحنا

١٦ :٢٣ - ٢٤) . وهو نفسه قال لتلاميذه وكل من آمن به : « اشفوا المرضى اطردوا الشياطين ، مجاناً أخذتم فمجاناً اعطوا » (متى ١٠ : ٨) .

٨٤ - لم يشف أنطونيوس المرضى بأمره ، بل بصلاته وبدعاء المسيح ، لكي يظهر للجميع انه ما كان هو الذي يفعل هذا ، بل الرب الذي أظهر محبته للبشر وشفى المتألمين بواسطة أنطونيوس . وكان فضل أنطونيوس في الصلاة والنسك ، اللذين مكث من أجلهما في الجبل فرحاً بمشاهدة الإلهيات . لكنه كان يحزن من ازعاج الناس له ، فكان يُضطر للذهاب إلى خارج الجبل . توجّه مرة إلى الجبل عدد من القضاة و رجوا منه النزول، لأنهم لم يقدروا ان يدخلوا تلك المنطقة بسبب المتقاضين الذين كانوا يطاردونهم . فطلبوا أن يروه على انفراد . أمّا هو فأخذ طريقاً آخر وتوقف عن سلوك الطرق التي تؤدي إليهم . لكنهم أصرّوا على لقائه و أرسلوا الواقعين تحت طائلة المسؤولية بحماية الجند ، لكي ينزل بحجة أولئك . فاضطر الى النزول إلى الجبل الخارجي ، لأنه رآهم يبكون . فلم يذهب تعبه باطلا ، بل آل وصوله إلى منفعة كثيرين . فلقد نصح القضاة بتفضيل العدل وخوف الله وعرّفهم بأنهم يدانون كما يدينون (متى ٧ : ٢) . أمّا هو فأحب حياة الجبل على أي شيء آخر .

٨٥ ـ أخذ المحتاجون إلى مساعدة يضايقونه مرة ، حتى أن أحد القواد رجا منه ان ينزل فنزل . ولما كلّمه عمّا يقود إلى الخلاص وعمّا يحتاجون إليه همّ بالعودة سريعاً . لكن ذلك المدعو دوقا رجا منه البقاء أكثر، فقال انه لا يستطيع أن يطيل بقاءه معهم ، وأقنعه بمثل مفرح إذ قال : إذا بقي السمك على اليابسة طويلا يموت ، وهكذا إذا بقي الرهبان معكم طويلا يصابون بالتراخي . فكما يكون نزول السمكة إلى البحر ضرورياً هكذا يكون الإسراع إلى الجبل ضرورياً لنا ، لئلا ننسى في تأخرنا الحياة داخل الجبل . عندما سمع منه القائد هذه الأمور وأمور أخرى قال بإعجاب : ان هذا هو حقاً عبد لله . فمن أين لإنسان بسيط كهذا أن يملك عقلا عظيماً بهذا المقدار لولا محبة الله له .

٨٦ ـ كان هناك قائد اسمه فلاكيوس يطارد المسيحيين مطاردة مريرة ، لأنه حمس في مساندة الآريوسيين ذوي الاسم السيء . ولمّا كان قاسي القلب كثيراً كان يضرب المتبتلين ويعرّي الرهبان ليجلدهم . فأرسل إليه أنطونيوس كتاباً يقول فيه انني أرى الغضب آتياً عليك ، فتوقف عن اضطهاد المسيحيين ، لكي لا يحلّ بك الغضب الذي أوشك أن يقترب منك . فضحك فلاكيوس ورمى الكتاب أرضاً وبصق عليه وشتم الذين سلّموه الرسالة و أوصى ان يخبروا

أنطونيوس بما يلي : انني آت إليك ، لأنك تهتم بالرهبان . لكن ما ان مرت خمسة أيام حتى حلّ عليه ذلك الغضب . فعندما انطلق فلاكيوس و نسطوريوس والي مصر إلى دير الإسكندرية الأول ، الذي كان يدعى خيراوس ، على ظهر حصانين من أحصنة فلاكيوس ، وكانا من أكثر الأحصنة التي يربيها وداعة ، فقبل أن يصلا الى المكان ابتدأ الحصانان باللعب مع بعضهما كالعادة . لكن فجأة نهش الحصان الأكثر وداعة والذي كان يمتطيه نسطوريوس فلاكيوس ورماه أرضاً ، ثمّ انقض عليه واقتلع فخذه بأسنانه . فنقل فلاسيوس فوراً إلى المدينة حيث مات بعد ثلاثة أيام . فتعجب الجميع ، لأن ما تنبأ به أنطونيوس تحقق بسرعة .

٨٧ ـ هكذا كان يسدي النصائح الى ذوي المزايا الصعبة ، ويحذّر الذين كانوا يجتمعون به ، حتى ينسوا الادانة ويطوّبوا الذين اعتزلوا العالم . وهكذا حمى المظلومين ، إذ أحسّ بأنه هو المتألم ولا هم . فكان قادراً على إفادة الجميع ، حتى أن عدداً كبيراً من الجنود ومن الأغنياء تركوا أعباء الحياة وصاروا رهباناً . وكأنه الطبيب الذي وهبه الله إلى مصر . فمن كان حزيناً ولم يرجعه فرحاً ؟ ومن أتاه باكياً على أمواته ولم يطرح عنه الكآبة ؟

ومن أتاه غاضباً ولم يتحوّل غضبه إلى محبة ؟ ومن كان فقيراً ويائساً والتقى به ولم يزدر بالغنى ويتعزّ بفقره ؟ وأي راهب سقط في الإهمال وأتى إليه ولم يصبح أقوى من قبل؟ وأي شاب صعد إلى الجبل ورآه ولم ينكر اللذات ولم يحب العفة ؟ ومن ذا الذي جرّبته الشياطين وأتى إليه ولم يجد راحة ؟ ومن أتى متضايقاً ولم يجد راحة ؟ ومن أتى متضايقاً من أفكار شريرة ولم يهدأ فكره ؟

٨٨ ـ كان عظيماً في نسكه ، كما قلت ، لأنه امتلك موهبة تمييز الأرواح وعرف تحركاتها . ولم يجهل إلى أين يوجّه اهتمامه واندفاعه . ولم يكن هو وحده الذي لم تخدعه الأفكار الشريرة ، بل كان يعزّي الذين كانوا يتضايقون منها ويعلّمهم كيف يبعدون هجماتها ويخبرهم عن ضعف الشياطين وحيلها . فكان يرجع كل واحد متشدداً وعارفاً حبائل إبليس وشياطينه . كم من عذارى مخطوبات بقين عذارى من أجل المسيح عندما رأين أنطونيوس من بعيد ؟ فكان يأتي إليه الكثيرون من أماكن بعيدة ويرجعون بعد حصولهم على الفائدة ، وكأن أباهم أرسلهم . وعندما رقد كانوا وكأنهم أيتام الأب . فكانوا يتعزون من ذكر اسمه فقط ، ويحفظون في ذاكرتهم نصائحه وحثّه لهم .

٨٩ ـ ويجدر بي أن أخبركم عن نهاية حياته أنتم الذين

تملكون رغبة في السماع ، لأن هذه النهاية تستحق الغيرة .
فهو اعتاد زيارة الرهبان الذين هم في الجبل الخارجي .
عندما عرّفته العناية الإلهية عن نهاية حياته كلّم الاخوة
قائلا : هذه هي زيارتي الأخيرة لكم ، ولا أدري إذا كنّا
سنلتقي في هذه الحياة بعد . حان وقت رحيلي فإنني بلغت
مئة وخمس سنوات . حينما سمعوا هذا بكوا وعانقوه وقبّلوه .
أما هو فكلّمهم وكأنه يترك مدينة غريبة ليعود إلى مقرّه ،
و أوصاهم بأن لا يتهاملوا في الأتعاب ولا يكلّوا في النسك ،
بل أن يعيشوا وكأنهم يموتون في كل يوم . وكما قلت لكم
سابقاً : احفظوا أنفسكم من الأفكار الدنسة ولتكن عندكم
غيرة القديسين ، ولا تدنوا من المليتانيين المنشقين ، لأنكم
تعرفون قصدهم الشرير . لا تتصلوا بالآريوسيين ، لأن
كفرهم معروف عند الجميع ، وإذا ما رأيتم مساندة القضاة
لهم فلا تضطربوا ، لأن توقفها وشيك وافتخارهم بقوتهم
أمر وقتي وزائل . فاحفظوا أنفسكم سالمة منهم وحافظوا
على تقليد الآباء وقبل كل شيء على الإيمان القويم بيسوع
المسيح الذي تلقنتموه من الكتاب المقدس والذي طالما
ذكّرتكم به .

٩٠ ـ و ألحّ الاخوة عليه في البقاء الى جانبهم ليموت
هناك ، فلم يقبل لأسباب كثيرة ، كما كان يظهر بصمته .

والسبب الـرئيسي هو أن المصريين اعتـادوا تكفـين أجسـاد العظماء وعلى الأخص الشهداء القديسين وحفظها من دون دفنها تحت التراب . فكانوا يضعونها على منضدة ويحفظونها داخل البيوت ظانين بأن هذا تكريم للراقدين . فطالما رجا أنطونيوس من الأسقف أن يرشد الشعـب ووبّـخ الرجـال و زجر النساء قائلاً، انه أمر غير شرعي وغير مقدس أبداً. فها ان أجساد البطاركة والأنبياء ما زالت محفوظة حتى هذا اليوم في القبور ، كما أن جسد المسيح نفسه وضـع في قبـر ووضع حجر عند باب القبر ، وبقي مدفونـاً إلى أن قام في اليوم الثالث (أنظر متى ٢٧ : ٦٠ ، يوحنـا ١٩ : ٤١ ـ ٤٢) . بهذا القول أراهم أن عدم دفن الأجساد أمر يخالف الشريعة ، حتى ولو كانت الأجساد مقدسـة . فأي جسـد أسمى وأقدس من جسد الرب . وعندما سمـع الكثـيرون هذا الكلام ابتدأوا بدفن الأجساد وشكروا الـرب ، لأنهـم تلقوا تعليماً كهذا.

٩١ ـ أمّا هو فإذ كان يعرف هذا ويخاف من أن يفعلـوا هكذا بجسده غادر بسرعة بعد أن حيّا الرهبان الذين كانوا في الجبل الخارجي . ففضّـل الجبـل الـداخلي حيث اعتـاد الإقامة ، وبعد أشهر قليلة مرض فدعا الناسـكين اللـذين نسكا معه مدة خمسة عشر سنة وخدماه في شيخوخته وقـال

لهما : أنـا أسـير الآن على طريق الآبـاء ، كما هو مكتـوب (يشوع ٢٣ : ١٤) ، لأنني أرى الرب يدعوني . فكونـا صاحيين ولا تضيّعا نسككما الطويل ، بل اهتما بالحفاظ على غيرتكما ، كما لو كنتما في البداءة . اعلما بأن الشياطين تريد شراً بكما . فهي متوحشة إلاّ أنها ضعيفة . لا تخافا منها ، بل تنفسا المسيح دائماً وآمنا به . عيشا وكأنكما تموتان يومياً وتـذكّرا نصائحـي . لا تتصـلا بالمنشقـين ولا بالآريوسيين الهراطقة ، لأنكما تعلمان كيف أتجنبهم بسبب هرطقتهم التي تحارب المسيح وبسبب تعاليمهم الغريبـة . اهتما بأن يكون الرباط بينكما قوياً، و اتحدا أولا بالمسيح ثم بالقديسين الذين ستلتقيان بهم بعد الموت في المساكن الأبـدية. فكّرا في هذه الأمور واعقلاها . إذا كنتما تهتمان بي فتذكّرا انني أب لكما ولا تفسحا في المجال للآخرين بنقل جسدي الى مصر كي لا يضعوه في بيوتهم . لهذا دخلت الجبل وأتيت إلى هنا . انكما تعلمان كيف كنت دائماً أوبّخ الذين يفعلون هذا الأمر حاثّاً إياهم على الـكفّ عن هذه العـادة . ادفنـا جسـدي تحـت التراب و احفظا قولي وهو ألاّ يعرف احـد غـيركما المكان ، لأنني سأحصل عليه بلا فساد في قيامة الأموات. وزّعا ثيابي فأعطيا اثناسيوس الأسقف ثوبي المفرّى، ثوبي الـذي كان كفراش لي وكل ما وهبه لي جديداً وأنا أبليته . وأعطيا الثوب

المفرّى الآخر إلى الأسقف سرابيون . واحتفظا أنتما بكسائي المكسو بالشعر . فإنّ أنطونيوس ينتقل ولن يبقى معكما .

٩٢ ـ حالما قال هذا الكلام عانقاه . فمدّ رجليه ونظر إليهما كصديقين قادمين إليه ، وفرح جداً حتى أن وجهه كان بهيّاً . فمات و انضم إلى الآباء. وكما أوصاهما لفّا جسده ودفناه تحت التراب . ولم يعلم أحد حتى اليوم أين هو قبره سوى هذين . وكان كل منهما ينظر إلى الثوب الممزّق الذي كان معه وكأنه كنز ، لأن رؤية ثيابه كانت بالنسبة إليهما رؤية أنطونيوس نفسه . وعندما كانا يرتديان ثيابه كانا وكأنهما يحفظان نصائحه بفرح .

٩٣ ـ هذه هي نهاية أنطونيوس في الجسد ، وتلك هي بداءة النسك . وعلى الرغم من قلة هذه الأمور إذا ما قورنت بفضائله ، فكّروا في أنطونيوس رجل الله الذي حفظ منذ حداثته حتى هذه السنّ المتقدمة غيرة النسك غير منتقصة ، دون أن ينتصر عليه الطعام الحسن بسبب شيخوخته ودون أن يغيّر شكل ثيابه بسبب ضعف جسده ، ودون أن يغسل رجليه بالماء أبداً . لكنه بقي في كل شيء من غير أذى . فنظره لم يضعف وأسنانه لم تتساقط ، بل بقيت نخرة تحت اللثة بسبب تقدمه في السنّ . كما بقي صحيح

اليدين والقدمين . وكان أشدّ قوة من كل الذين استخدموا نظاماً معيّناً في طعامهم وألبسة متنوعة و استحماماً كثيراً. ان شهرته الواسعة ومحبة الجميع له وإعجابهم به ومحبتهم له دون أن يروه دليل على فضيلة نفسه ومحبتها لله . ان أنطونيوس لم يُعْرف بسبب مؤلفاته ولا بسبب حكمة خارجية أو فنّ ما ، بل بسبب اتقائه لله . فلا أحد ينكر أنها موهبة من الله ، إذ كيف وصلت شهرته إلى اسبانيا و فرنسا و روما و افريقيا وهو قابع في الجبل ، لو لم يكن الله هو الذي جعل أخصاءه معروفين في كل مكان ووعد أنطونيوس بهذا منذ البدء ؟ فحتى لو عمل أخصاؤه في الخفاء و سعوا إلى تجنب انتباه الناس فإنهم سيعرفون ، لأن الربّ هو الذي يظهرهم أنواراً للجميع ، لكي يعرف السامعون انهم قادرون على تطبيق وصايا الله ، ولكي يكتسبوا غيرة في طريق الفضيلة .

٩٤ ـ اقرأوا هذه على بقية الإخوة ، حتى يعرفوا كيف يجب أن تكون حياة الرهبان ويقتنعوا بأنّ الرب والمخلص يسوع يمجّد الذين يمجدونه وبأنه يقود الذين يخدمونه إلى النهاية ، لا إلى ملكوت السماوات فحسب ، بل يجعلهم هنا معروفين في كل مكان لمنفعة الآخرين ، رغم أنهم يختبئون ويسرعون إلى الإنسحاب والإبتعاد . وإذا لزم الأمر اقرأوا هذه على الوثنيين ، لكي لا يدركوا فقط أن الرب يسوع

المسيح هو الله و ابـن الله ، بل أن الـذين يعبدونـه بصدق ويؤمنون به بتقوى يطردون الشياطين التي يظنهـا الهلينيون آلهة . انها ليست آلهة ، لأن المسيحيين يدوسونها ويطردونها كمضلّلة ومفسدة للناس ، وذلك بيسوع المسيح ربنا الذي له المجد الى دهر الداهرين .

آميـــــن